٣٤٤

المختار من

تفسير الشعراوي

للقرآن العظيم

لفضيلة الإمام / محمد متولي الشعراوي

الجزء الثاني

تقديم / عمرو خالد إعداد / فريد إبراهيم

دار الروضة

طبع ـــ نشر ـــ توزيع

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٩٤٨٢٧٨٥١

سورة الرعد

سورة الرعد

أسباب التقدُّم.. والتخلُّف

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [الرعد]

التفكُّر هو أنْ يفكر الإنسانُ فيما هو بصدده، ليستنبطَ منه شيئاً ليس بصدده. أى: أن الإنسانَ يتأمل أمراً من الأمور أمامه باستغراق، سواءٌ أكان أمامه فى حالته المادية أو فى حالته المعنوية، فيخرج بمعنىً جديد أو حكمة لم يلتفت إليها ذهنُه.

بذلك يحدث الثراءُ المعلوماتى، لأن المعلومات إذا لم تتلاقح وتتوالد تقف وتتجمد، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحى.. وإذا أصيبَ الإنسان بهذا الجمود توقف الارتقاء، لأن الارتقاءات التى نراها فى الكون هى نتيجة التفكر وإعمال العقل.

ومن هنا كان التفكيرُ فريضةً إسلامية، العقل هو من رزق الله للإنسان الذى يُحاسب عليه، وأعماله مسئولية يُسأل عنها كما يُسأل عن بقية ماله، وكذلك عمره، إلى آخر نعم الله على الإنسان.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [الرعد]

ويقول أيضاً: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ ﴾ [يوسف]

ولا شك أن كلَّ الاختراعات التى نَعم بها الإنسانُ واستفاد بها علــى مدى تاريخه كانت نتيجة لتدبُّر وتفكير عميـق وبَحْـث عـن حلـول المشكلات تُواجه الإنسان.

فالله سبحانه وتعالى منحنا ضــرورات الحيــاة والمــادة الطبيعيــة، وأعطانا العقل ثم تركنا لنستنبط، أي أنه أعطانا مقومات الحياة، وأعطانا ما يزيل مشكلاتها.

لذا فإن الناس يتساوون أمام الله في نتائج الجهد، مؤمنهم وفـاجرهم، وبرّهم وفاجرهم، لأن عدالــة الله سـبحانه وتعــالى منحـتْ الجميــع المُقوّمات، ومنحتْ الجميعَ العقلَ، وأتاحتْ للجميع أيضاً عطاءات الحياة، ولكلِّ مجتهد أنْ يحصل على نتائج اجتهاده.

وهذا يفسر ما يُستغرب من تخلُّف بعض المسلمين وتقدُّم الآخــرين، ويصل الأمر بأنْ يُقال: كيف ونحن مسلمون نتخلف، وهم علــى غيــر الإسلام ويتقدّمون؟

الإجابة هنا تكمُنُ فى عدالة السماء التى أعطتْ وتركتْ منْ يجتهــد فتقدَّم المسلمون حين اجتهدوا، وتخلَّفوا حين تكاسلوا.

تَسْبِيح الرَّعْد بحَمْد اللهِ

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد]

وسبق أنْ جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئيّ، وهنا يأتي بالرعد وهو صوتيّ، ونحن نعرف أن سرعةَ الضوء أسرعُ من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك.

وحين يسمع أحدُ العامةِ واحداً لا يعجبه كلامه، يقول له: سمعت الرعد. أي: يطلب له أنْ يسمع الصوت المزعج الذي يُتعِب مَنْ يسمعه. ولنا أن ننتبه أن المُزْعِجات في الكون إذا ما ذكرت مُسبِّحة لربها فلا تنزعج منها أبداً، ولا تظن أنها نغمة نَشازٌ في الكون، بل هي نغمة تمتزج ببقية أنغام الكون.

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام، ولكن هذا عند الإنسان ؛ لأن الذي خلق الكائنات كلها علَّمها كيف تتفاهم، مثلما علَم الإنسان كيف يتفاهم مع بني جنسه، وكذلك علَّم كلَّ جنس لغته.

وكلنا نقرأ في القرآن ماذا قالت النملةُ حين رأتْ جنودَ سليمان: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[النمل]

وقد سمعها سليمان عليه السلام ؛ لأن الله علَّمه مَنْطِق تلك اللغات، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علَّم سليمان منطق الطير. قال تعالى: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدهد وتكلَّم معه؟ بعد أن فكَّ سليمان بتعليم الله له شَفْرة حديث الهدهد، وقال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

إذن: فكلُّ شيء له لغةٌ يتفاهم بها لقضاء مصالحه، ومَنْ يفيض الله عليه من أسرار خَلْقه يُسْمِعه هذه اللغات، وقد فاض الحقُّ سبحانه على سليمان عليه السلام بذلك، ففهم لغةَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد، وقال له:
﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النمل]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس، وكيف فَهم سليمانُ مَنْطِقَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد؟ وهكذا عَلِمنا كيف يتعلَّم الإنسانُ لغاتٍ متعددة، فحين يذهب إنسانٌ إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة، فهو يتعلم لغةَ ذلك المجتمع، ويمكن للإنسان أنْ يتعلمَ أكثر من لغة.

وقد عرض الحقُّ سبحانه مسألةَ وجود لغاتٍ للكائنات في قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان؛ وهما من المرتبة التالية للبشر.

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها، ونحن نلحظ أن لكلِّ نوع من الحيوانات صَوْتاً يختلف من نوع إلى آخر، ويدرس العلماءُ الآن لُغةَ الأسماك، ويحاولون أنْ يضعوا لها مُعْجماً.

إذن فساعةَ نسمع قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة، وهو يُسبِّح بها الخالق الأكرم.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] مثلما لا يفقه جاهلٌ بالإنجليزية لغة الإنجليز.

وقال البعض: إن المُرَاد هنا هو تسبيح الدلالة على الخالق، وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فَهْم تسبيح الدلالة.

ولكني أقول: إن العلم المعاصر قد توصَّل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها، وعلى ذلك يكون التسبيحُ من الكائنات بالنطق والتفاهم بين مُتكلِّم وسامع، بل ولتلك الكائنات عواطفُ أيضاً.

ونحن نرى العلماءَ في عصرنا يدرسون عواطفَ الشجر تجاه مَنْ يسقيه من البشر، وهنا تجربةٌ تتحدَّث عن قياس العلماء لذبذبة النبات أثناء ريِّه بواسطة مُزارِع مسئول عنه، ثم مات الرجل فقاسوا ذبذبة تلك النباتات فوجدوها ذبذبة مضطربة، وكأن تلك النباتات قد حزنتْ على مَنْ كان يعتني بها، وهكذا توصَّل العلماءُ إلى معرفة أن النباتات لها عواطف.

وقد بيَّنَ لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف، بدليل قوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان].

فالسماءُ والأرض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض، فالسماوات والأرض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مُرادات الله، وحين يأتي كافر ليصنع بكفره نشازاً مع الكون فهي تفرح عند اختفائه، ولا تحزن عليه.

وما دامت السماء والأرض لا تبكيان على الكافر عند رحيله ؛ فلا بُدَّ أنهما تفرحان عند هذا الرحيل، ولا بُدَّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن.

ولذلك نجد قَوْل الإمام علي كرَّم الله وجهه: إذا مات ابنُ آدم بكى عليه موضعان: موضعٌ في السماء، وموضعٌ في الأرض. وأما موضعه في الأرض فَموضِع مُصَلاَّه. وأما موضعه في السماء فَمصعَدُ عمله.

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد] أي: يُنزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق - تبارك وتعالى - تسبيحاً مصحوباً بالحمد.

ونحن حين نُنزِّه ذاتَ الله عن أنْ تكون مثل بقية الذوات، وحين نُنزِّه فِعْل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه، وحين نُنزِّه صفات الله عن أنْ تكونَ كالصفات، فلا بُدَّ أنْ يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه؛ لأنه مُنزَّه عن كل تلك الأغيار، وعلينا أنْ نُسَرَّ من أنه مُنزَّه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ.. ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد] ولقائل أنْ يتساءل: كيف تخاف الملائكةُ من الله؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم].

وأقول: إن الملائكة يخافون اللهَ خِيفة المَهابة، وخيفة الجلال.

ونحن نرى في حياتنا مَنْ يحب رئيسه أو قائده، فيكون خوفه مَهَابة، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى الذي تُحبه ملائكته وتَهاب جلاله وكماله، صحيحٌ أن الملائكةَ مقهورون، لكنهم يخافون ربَّهم من فوقهم.

وساعةَ تسمع الملائكةُ الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم؛ ولكنهم يخافون على الناس؛ لأنهم حفظة عليهم، فالملائكة تَعي مهمتها كحفظة على البشر، وتخشى أنْ يُربكهم أيُّ أمر، وهم يستغفرون لِمَنْ في الأرض.

إذن: فقوله ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ.. ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد] يُبيِّن لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد، فَهُمْ مُكلَّفون بحمايتهم، مع خوفهم من الله مَهابة وإجلالاً.

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا مَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: الله أعْط مُنفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعْط مُمْسكاً تَلفاً)).

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمْسِك، ولكني أقول: لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْر؟ فالمُنفِق قد أخذ ثواباً على ما أدَّى من

حسنات، أما المُمْسِك فحين يبتليه اللهُ بتلفِ بعضٍ من ماله ويصبر على ذلك، فهو يأخذ جزاء الصبر.

الرسول للبلاغ

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

مهمة الرسول تبليغُ منهج الله كما كلَّفه به، أما إيمانُ الناس بالمنهج أو انصرافهم عنه فليست مسئوليةَ الرسول، وهو ما أكّده القران فى مواقع كثيرة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

أى: مَنْ شاء فليُؤمن، ومَنْ شاء فليكفر.

والآية لا تتعارض مع قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ذلك لأن الرسول لا شكَّ يتمنى لقومه الهدايةَ وللناس أجمعين أيضاً، لأنه يعرف ما ينتظرهم من عذاب إنْ لم يؤمنوا ويُشفق عليهم من هذا العذاب، ومن هنا كان تخفيفُ الله عن الرسول ﷺ حين وجده حزينا على قومه الذين لا يُدركون عاقبةَ عنادهم وانصرافهم عن الهداية.

فيقول له ﷺ ما حكى القرآن: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف]

ولا شكَّ أن النبى –أىّ نبى– يرجو لدعوته النجاحَ، ويرجو أنْ يرى نتائجَ عمله فى هداية الناس واستقامة سلوكهم، لأن كلَّ دعوة من دعوات الخير تكبُر يوماً بعد يوم، ودعواتُ الشر تبهتُ يوماً بعد يوم، ويتشوَّق داعى الخير أنْ يرى ثمار دعوته، وقد أينعتْ.

ولكن الأمر فى دعوات الخير قد يحتاج وقتاً يفوق عُمر الداعى، لذلك يقول الله: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ۝٤٠ ﴾ [الرعد] أى: اغرس الدعوة ودَعْ مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك. أى: تفرَّغ للغرس فقط.

سورة إبراهيم

سُورة إبراهيم

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يفضح الشيطان نفسه، فيقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ووَعْد الله حَقٌّ، لأنه وَعْد مِمَّنْ يملك، أما وَعْد الشيطان فقد اختلف؛ لأنه وَعْدٌ بما لا يملكُ، وهو وَعْد كاذب؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذي لا يتغير.

وحين تَعِد أنت –الإنسان– إنساناً آخر بخير قادم، فهل تضمن أنْ تُواتيك ظُروفك على أن تُحقِّق له هذا الأمر؟ ولذلك يوصينا الحق

سبحانه أن نقول: إن شاء الله. وبذلك نردّ الوَعْد لله فهو وحده الذي يُمكنه أنْ يَعِدَ ويُنفِّذ ما يعِد به.

وعلى الواحد منا أنْ يحميَ نفسه من الكذب، وأن يقول: إن شاء الله. فإنْ لم تستطع أنْ تحققَ ما وعدتَ به تكون قد حميتَ نفسك من أنْ تَلَقى اتهاماً بالكذب.

ونجد الشيطان وهو يقول في الآخرة: ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]، ذلك أن وَعْده باطلٌ؛ والباطل لَجْلَج، وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به.

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل، فيقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبرِّيء نفسه رغم عِلْمه أنه قد وعد، وهو لا يملك إنفاذَ ما وعد به؛ ولذلك يحاول أنْ يُلصقَ التهمة بِمَنْ اتبعوه، مثله مثل أولئك الذين قالوا: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

والسلطان -كما نعلم- إما سلطانُ قَهْر أو سلطانُ إقناع. وسلطانُ القَهْر يعني أنْ يملكَ أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أنْ يفعل ما يكره، بينما يكون كارهاً للفعل.

أما سلطان الحجة فهو أنْ يملكَ منطقاً يجعلك تعمل وفْقَ ما يطلبه منك وتحب ما تفعل، وهكذا يعترف الشيطانُ للبشر يوم الحشر الأعظم ؛ ويقول: أريد أنْ أناقشكم ؛ هل كان لي سلطان قَهْرِيّ أقهركم به؟ هل كان لي سلطان إقناع أقعنكم به على اتباع طريقي؟

لم يَكُنْ لي في دُنياكم هذه ولا تلك، فلا تتهموني ولا تجعلوني (شماعة) تُعلِّقون عليّ أخطاءكم؛ فقد غويتُ من قبلكم وخالفتُ أمر ربي؛ ولم يَكُنْ لي عليكم سلطانٌ سِوَى أنْ دعوتُكم فاستجبتُم لي.

وكلُّ ما كان لي عندكم أنِّي حرَّكْتُ فيكم نوازعَ أنفسكم، وتحرَّكتْ نوازعُ أنفسكم من بعد ذلك لِتَقبلوا على المعصية.

إذن: فالشيطانُ إما أنْ يُحرِّك نوازع النفس؛ أو يتركَ النفسَ تتحرَّك بنوازعها إلى المعصية، وهي كافيةٌ لذلك.

وسبق أنْ أوضحتُ كيف تُعْرف المعصية، إنْ كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً، فإنْ وقفتْ النفس عند معصية بعينها، وكلَّما أبعدها الإنسان تُلِح عليه، فهذا هو ما تريده النفسُ من الإنسان حيث تطلب معصية بعَينها.

أما نَزْغُ الشيطان فهو أنْ ينتقلَ الشيطانُ من معصية إلى أخرى محاولاً غوايةَ الإنسان، إنْ وجده رافضاً لمعصية ما انتقل بالغواية إلى غيرها؛ لأن الشيطانَ يريد الإنسانَ عاصياً على أيِّ لَوْن؛ فالمهم عنده أنْ يعصيَ فقط ؛ لذلك يحاول أنْ يدخلَ الإنسانُ من نقطة ضعفه ؛ فإنْ وجده قوياً في ناحية اتجه إلى أخرى.

ويعلن الشيطانُ أنه ليس الملُوم على ذلك: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالملُوم هنا هو مَنْ أقبل على المعصية، لا مَنْ أغوى بها.

ويستمرالحق سبحانه في فَضْح ما يقوله الشيطانٍ لمَنْ أغواهم في اليوم الآخر: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

هذا هو قَوْل الشيطان الذي سبق وأنْ تعالى على آدم لحظة أنْ طلبَ منه الحقُّ سبحانه أنْ يسجدَ له مع الملائكة، ولكن الموقفَ هنا هو التساوي بين الذين أغواهم وبينه، فهو يعلن أنه لن ينفعهم، وهم لن ينفعوه.

والمُصْرِخ من مادة الصِّراخ من صرخ، وهو رَفْع الصوت بغرض أنْ يسمعه غيره؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخرَ غير المعونة، فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ، بل يتلفَّت حوله ليرى: هل هناك مَنْ رآه أم لا؟

أما إنْ هاجمه أسدٌ فلا بُدَّ أنْ يصرخَ طالباً النجدة، وهكذا يكون الصراخُ له مأرب طَلَبِ المعونة، وهذا لا يتأتَّى إلا ممَّنْ يخاف من مُفْزِع.

و (مُصرِخ) يدل على الفعل (أصرخ)، وهو فعلٌ دخلتْ عليه ما يُسمّى في اللغة "همزة الإزالة". والمثَل هو كلمة " معجم" أي: الذي يدلُّك على معنى اللفظ ليُزيلَ إبهامه، فيقال: أعجم الكتاب. أي: أزال إبهامه، وهذه الهمزة التي دخلتْ تُوضِّح إزالةَ العُجْمة عن الكلمة.

والمثل أيضاً على هذه الهمزة هو كلمة " عتب " أي: لامه، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح "أعتب" أي: أزال ما به عَتَب.

ونجد في دعائه ﷺ قَوله الشريف: ((لك العُتْبــى حتــى ترضــى)). أي: إذا كُنتَ يا ربّ تعتب علــيّ فــي أيّ شــيء، فأنــا أدعــوك أنْ تُزيلَ هذا العتب.

وهكذا نجد أن الإزالة تأتي مرة بإضافة الهمزة، ومرة تأتي بالتضعيف، مثل قولنا: مرَّض الطبيبُ مريضه. أي: أزال عنه –بإذن من الله– مرضه.

إذن: (مُصْرِخ) هو مَنْ يُزيل صراخَ آخرَ، فكأن هناك مَن استغاث فجاءه مَنْ يُغيثه. وهكذا يلعن الشيطان في اليوم الآخر أنه ومَنْ أغواهم في مأزق، وأنه غَيْرُ قادر على إزالة سبب هذا المأزق، ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه، ولن يُغيثَ أحدُهما الآخر.

ويُضيف: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فأنتم أشركتموني مع الله في الطاعة حين استسلمتُم لغوايتي، ولم تكونوا من عباد الله المخْلَصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألاَّ أُغويهم، وكلٌّ منكم نفَّذ ما أغويتُه به، فناديتُكُم واستجبتُم، وناداكم اللهُ فعصيتُم أو كفرتم. وصِرْتم مِثْلي، فقد سبق لي أنْ أمرني الله وعصيتُ.

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لمَنْ كفر وعصى:

﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذه قضية عامة، قضية الكفر في القمة، فكمَا أطعتُم الشيطانَ وجعلتموه شريكاً لله، فها هو الشيطانُ يُخبركم بتقدير هذا الموقف بأنه

شِرْك بالله، وهو يعلن الكفر بهذا ؛ لأن يوم الحشر قد جاء، وتحقق فيه قولُ الله له: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ ﴾

[الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم -وهو اليوم الآخر- يندسُّ ويُوسوِس وينزغ، أما في ذلك اليوم فقد برز كلُّ شيء من إنس وجن، وكل الكائنات أمام الواحد القهار، ولم يَعُدْ هناك ما يَخْفى عن العين.

وهذا ما خدعوا به أنفسهم، وظنُّوا أنهم قادرون على أن يُخفوا ما فعلوه عن أعْيُن الله.

ولذلك نجد الحديث القدسي يقول: ((يا بني آدم، إنْ كُنْتم تعتقدون أَنِّي لا أراكم، فالخَلل في إيمانكم، وإنْ كُنتم تعتقدون أَنِّي أراكم، فَلِم جَعَلْتموني أهونَ الناظرين إليكم؟)).

وأنت في حياتك اليومية لا تجد مَنْ يسرق من آخر وجهاً لوجه: ولا أحدَ يحرق بيت أحدٍ أمام عينيه ؛ فإنْ كنتم يا معشرَ البشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البعض ؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم فتعصونه؟

وإنْ شَككتُم أنه لا يراكم فالخلل في إيمانكم، وإنْ كُنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلوه أهونَ الناظرين إليكم، لأنه لو نظر إليك إنسانٌ فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه.

ولذلك يقول الشيطان مُعترفاً ومُقِراً بأن الظالمين لهم عـذاب ألـيم، والظلم في القمة هو الشرك بالله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ ﴾

[لقمان]

وحين نقرأ ذلك إما أنْ نأخذه على أنه إقرارٌ من الشيطان ؛ أو نفهمه على أن الشيطان قال: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ .. ﴿٢٢﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فبعد أنْ تكلَّم سبحانه عن بروز الخَلْق والكائنات؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية؛ يأتي بالقضية النهائية في الحكم: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

[إبراهيم]

والمناسبات تُوحي بمقابلاتها ؛ لتكون النفس مُتشوِّقة ومُتقبِّلة لهذا المقابل، مثل قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار]

ويأتي بعدها بالمقابل لها: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء لا بُدّ أنْ يفتحَ القلوبَ لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعِدوا بالإيمان.

ربِّ اجْعلْ هَذا البَلدَ آمِناً

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وحين يقول سبحانه (وَإِذ) أي: اذكر. ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَب) ولم يَقُلْ: يا الله. ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربِّي، لذلك قال (رَب) ولم يَقُل: يا الله. لأن عطاءَ الله تكليفٌ، وأمام التكليف هناك تخيير في أنْ تفعل ولا تفعل.

أما عطاء الربوبية فهو ما يُقيم حياةَ المُصلِّين وغير المُصلِّين.

ولم تَأْتِ مسألةُ إبراهيم هنا قَفْزاً، ولكِنّا نعلم أن القرآنَ قد نزل، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش الذين تمتَّعوا بالمهابَة والسيادة على الجزيرة العربية، ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها في رِحْلَتيْ الشتاء والصيف لليمن والشام، وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام.

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكلِّ كائن موجود تنتظر أُذنه نداءَ الإسلام.

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النِّعم التي تخصُّهم ؛ لذلك قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا.. ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقد وردتْ هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر، وهو قوْل الحق سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا.. ﴿١٢٦﴾ ﴾

[البقرة]

والفرق بين (ٱلْبَلَد) و (بَلَدًا) يحتاج مِنّا أن نشرحه، فـ (بَلَدًا) تعني أن المكانَ كان قَفْراً، ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً. أي: أن يجد مَن يقيمون فيه، يُجدّدون حاجاتهم ومتُطلباتهم؛ وتكون

وسائلُ الرزق فيه مُيسَّرة، ودعاؤه أيضاً شمل طلبَ الأمن. أي: ألاَّ يُوجد به ما يُهدّد طمأنينةَ الناس على يومهم العاديّ ووسائل رزقهم.

وأجاب الحقُّ سبحانه دعاءَ إبراهيم، فصار المكان بلداً وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً؛ لأن الإنسانَ في أيّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمنَ لنفسه أسبابَ الأمن من مُقوّمات حياة، ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً، وهذا الأمن مطلوبٌ لكلّ إنسان في أيّ أرض.

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان، وكان وادياً غير ذي زرع، ولا مُقوّمات للحياة فيه، فكان دعاؤه هذا الذي جاء ذِكْره في سورة البقرة.

أما هنا فقد صار المكانُ بلداً، وكان الدعاءُ بالأمن لثاني مرة هي دعوةٌ لأمن خاص، ففي غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة، أو يُصْطاد صَيْدٌ، ولكن في هذا المكان هناك أَمْنٌ خاصّ جداً؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شيء يُوجد فيه فحتى الحيوان لا يُصاد فيه، وحتى فاعل الجريمة لا يُمَسّ.

وهكذا اختلف الدعاءُ الأول بالأمن عن الدعاء الثاني. فالدعاء الأول: هو دعاء بالأمن العام. والدعاء الثاني: هو دعاءٌ بالأمن الخاص، ذلك أن كلَّ بلد يوجد قد يتحقق فيه الأمن العام، ولكن بلدَ البيت الحرام يتمتَّع بأمنٍ يشمل كلَّ الكائنات.

ويقول بعض السطحيين: ما دام الحقُّ قد جعل البيتَ حَرَماً آمناً؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس في الحرم؟

ونقول: وهل كان أمْنُ الحرم أمراً كونياً، أم تكليفاً شرعياً؟ إنه تكليفٌ شرعيٌّ عُرْضة أنْ يُطاع، وعُرضة أن يُعصى.

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران] يعني أن عليكم أيُّها المُتبِّعون لدين الله أنْ تُؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم في أمن وأمان، وهناك فارقٌ بين الأمر التكليفيّ والأمر الكونيّ.

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]، وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث في البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَيٍّ الذي أدخل عبادةَ الأصنام إلى الكعبة، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام.

ولقائل أنْ يسألَ: وكيف يدعو إبراهيم بذلك، وهو النبيُّ المعصوم؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادةَ الأصنام؟

وأقول: وهل العصمة تمنع الإنسانَ أن يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه؟ إننا نتلقَّى على سبيل المثال الأمرَ التكليفي منه سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ.. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]، وهو أمْرٌ بالمداومة.

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب عليه السلام : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وفي هذا القول ضراعةٌ إلى المُنعِم علينا بنعمة الإيمان، وفي هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه.

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قال هنا: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

والصنم غير الوثن، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم، أما قطعة الحَجَرِ والتي خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن.

وهناك مَنْ قال: إن الكفر نوعان. شرك جَلي، وشرك خفيّ. والشرك الجليّ أن يعبدَ الإنسانُ أيَّ كائن غير الله، والشرك الخفيّ أن يُقدّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله، ويعطيها فوق ما تستحق، وينسب لها بعضاً من قدرات الله.

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضي مِنّا أن نفهم معنى كلمة أبناء، ذلك أن إبراهيم عليه السلام قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله، ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والأوثان.

ومعنى كلمة (أبناء) أوضحه سبحانه في مواطن أخرى.

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضِل أحداً؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدَّث إلى أحد؛ ولكن القائمين عليها بدعْوى أن لتلك الأصنام ألوهية؛ ولا تكليفَ يصدر منها، هم الذين يُضِلُّون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامي: على حَلِّ شعورهم. ويُرحِّب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أنْ يتبعَ تعاليم الخالق الواحد الأحد.

الغُفرانُ والرَّحمةُ.. أم العزَّةُ والحكْمَةُ؟

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

[إبراهيم]

وهذه تعقيباتٌ في مسألة الغُفران والرحمة بعد العصيان، فمرّة يعقُبها الحق سبحانه: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]، ومرّة يعقبها: ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها، فهناك جريمة الخيانة العُظْمى أو جريمة القِمّة، مثل مَنْ يدّعي أنه إلهٌ، أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أنْ يقولَ لهم هو ذلك.

وقد قال عيسى عليه السلام بسؤال الحق له: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ.. ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

فيأتي قوْل عيسى عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القوْل: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

وهكذا تأتي العزّة والمغفرة بعد ذِكْر العذاب ؛ فهناك مواقف تُناسبها العِزّة والحكمة، ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يردّ لله أمْرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ، لأنه عزيزٌ وحكيمٌ.

وقوله الحق: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمُقدّمات الصدرية في الآية، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير، وأن الله هو الذي أوحى إلى عبده القرآن: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

فما الذي يجعله يقول في الآية: ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]، وفي آية أخرى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]، مع أن السياق المعنويّ قد يُوحي من الظاهر بعكس ذلك؟

وما الذي يجعله سبحانه يقول في آية بعد أن يُذكّرنا أن نِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

ويقول في آية أخرى بعد أنْ يُذكِّرنا بِنعَمِ الله بنفس اللفظ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

وكذلك قوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾ [عبس]، ثم قوله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل، فإن كلَّ آيـة لهـا حكمـة، وتنزيلهـا يحمل أسـرار المـراد، وكُـلُّ ذلـك يـأتي تصـديقاً لقولـه الحـق: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أنْ يُنزِل القرآنَ على رسوله ﷺ، ويضمن أنه سيحفظه، ولن ينسى موقع مكان آيةٍ من الآيات أبداً، ذلك أنه الذي قال: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾ [الأعلى] هو الحق الخالق القادر.

القُلوبُ تَهْوي إلَى بَيْتِ اللهِ المُحَرَّمِ

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ [إبراهيم]

والأفئدة جمع: فؤاد. وتُطلَق على الطائفة. وعلاقةُ الفؤاد بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى في الحجيج هوى قلوب لا جيوب. وأنت تجد الإنسانَ يجمع النقودَ الخاصة بالحج، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة.

وكلمة (هوى) مُكوّنة من مادة "الهاء و "الواو" و "الياء". ولها معَانٍ متعددة، فَلكَ أنْ تقول: "هَوَى" أو تقول: "هَوِى". فإنْ قلت: هَوَى يهوي.

من السقوط من مكان عالٍ دون إرادة منه في السقوط، وكأنه مقهورٌ عليه. وإنْ قُلْتَ: "هَوِى يهويَ" فهذا يعني أحبّ، وهو نتيجة لِميْل القلوب، لا مَيْل القوالب.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهم في مكان لا يمكن زراعته. وقد تقبّل الحقُّ سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛ ووجدنا التطبيق العملي في قوله الحق: ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا.. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

وذلك قبل أنْ يُوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة: يُجْبى. تدل على أن الأمرَ في هذا الرزق القادم من الله كأنه جِبَاية وأمْر مفروض، فتكون في الطائف مثلاً وفيها من الرُّمان والعنب، وتحاول أنْ تشتريه، فتجد مَنْ يقول لك: إن هذا يخصُّ مكةَ المكرمة، إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك.

وتجد في كلمة: ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا.. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

ما يثير العجب والدهشة، فأنت في مكة تجد بالفعل ثمرات كلِّ شيء من زراعة أو صناعة، ففيها ثمراتُ الفصول الأربعة قادمة من كل البلاد، نتيجة أن كلَّ البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة.

وفي عصرنا الحالي نجد ثمرات النموِّ الحضاري والعقول المُفكِّرة وهي معروضة في سوق مكة أو جدة، بل تجد ثمرات

التخطيط والإمكانات، وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس في كلِّ أَوْجُه الحياة هناك.

وقديماً عندما كُنَّا نؤدي فريضة الحج، كُنَّا نأخذ معنا إبرة الخيط ومِلْح الطعام، ومن بعد أنْ توحَّدتْ غالبيةُ أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول، صِرْنا نذهب إلى هناك ونأتي بكماليات الحياة.

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ.. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] فكلمة (من) تُوضِّح أن مَنْ تهوي قلوبهم إلى المكان هم قطعةٌ من أفئدة الناس. وقال بعض العارفين بالله: لو أن النصَّ قد جاء: فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم. لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلتْ أيضاً في الحجيج.

ومن رحمة الله سبحانه أنْ جاء النصُّ: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ.. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]، فاقتصر الحجيجُ على المسلمين.

سورة الحِجْر

سُورَة الحِجْر

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]

الكلمة واحدة·· والمعانى متعددة

الذكر فى اللغة جاء لمَعَان شتَّى، فمرَّة يُطلق على الكتاب أى القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]

ومرَّةً يُراد به الصِّيت والشهرة والنباهة، يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤ ﴾ [الزخرف] إلى أنه شرفٌ عظيمٌ لك، وكذلك لقومك أنْ تأتى المعجزةُ القرآنية من جنس لغتهم التى يتكلَّمون بها، وسوف يحفظ التاريخُ ذلك·

وقد يُطلق الذِّكر على الاعتبار والاتعاظ، يقول تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨ ﴾ [الفرقان] أى: نَسُوا العبرَ التى وقعتْ للأمم التى عاشتْ من قبلهم، ونصر الله الدين رغم عناد هؤلاء·

وقد يُطلق الذكرُ على كلِّ ما يبعثه الله سبحانه على لسان أىِّ رسول· يقول الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ ﴾ [النحل]

وقد يُطلق على تذكُّر الله دائماً فى كلِّ لحظة، يقول تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ·· ۝١٥٢ ﴾ [البقرة]·

أي: اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير والتجليات، فإذا كان الذكر بهذه المعانى فنحن نجد الاطمئنان فى أىٍّ منها، فالذكر بمعنى القرآن يُورث الاطمئنان، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب]

فكلُّ آية تأتى من القرآن كانت تُطمئن الرسول ﷺ أنه صادقُ البلاغ عن الله.

المنهج المحفوظ

مراحل نمو الإنسان متعددة، ولكلٍّ مرحلة احتياجاتها، فهناك مرحلةُ الطفولة، وهناك مرحلةُ الفُتوة، ومرحلةُ الشباب، والرجولة والنضج لذلك يعطى اللهَ سبحانه وتعالى من الأحكام ما يناسب هذا المجتمع، فيعطى أولاً الاحتياجَ المادىّ للطفولة.

وعند فترة الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية، وعندما يصل إلى الرُّشْد يُعطيه زمامَ الحركة فى الكون على ضوء المنهج، فكانت رسالة الإسلام على موعد مع رُشْد الزمان.

فقد كانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام، وكانت السماءُ هى التى تُؤدِّب، ولكن عندما اكتملَ رُشد الإنسانية أرسل رسوله الكريم، وكلَّفه بأنْ يُؤدِّب مَنْ يخرج على منهج الله فى حركة الحياة، لأنه ﷺ أصبح مأموناً على ذلك.

وإذا نظر الإنسان إلى الكون قديماً وجده كَوْناً انعزالياً، فكلُّ جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى، وكلٌّ جماعة لها نظامها وحركتُها وعَيْشها وداءاتها.

وجاء الإسلام على اجتماع البشر جميعاً، فقد علم اللهُ أزلاً أن الإسلام سيجيء على ميعاد مع إلغاء فوارقَ فى الزمن والمسافات، وأن الأمر يصبح فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق.

إذن: فقد اتحدتْ الداءاتُ، ولا بدَّ أنْ يكونَ الدواءُ واحداً جامعاً للزمان، وجامعاً للمكان ومانعاً أن يجيء رسولٌ آخر بعده، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه، فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ (افعل، ولا تفعل) والقرآن أيضاً به (افعل) و (لا تفعل).

لكن المنهج السابق على القرآن كان مطلوباً من المُنزَل إليهم أنْ يحافظوا عليه، وما دام قد طلب اللهُ منهم ذلك فكان من الواجب أنْ يمتثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج، فكلُّ منهج عُرْضةٌ لأنْ يُطاع وعُرضةٌ لأنْ يُعصى، ولم يحفظوا الكتب السابقة على القرآن وحدث فيها التحريف.

أما القرآن الكريم فقد حفظه اللهُ سبحانه بنفسه، وتكفَّل بذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

الدين.. والتجارب العلمية

كثيراً ما ينكر أعداء الإسلام أن هذا الدينَ دعوةٌ إلى العلم وإلى اتخاذ كلِّ وسائل المعرفة بالحياة وحلّ مشكلاتها.

إن الدين لا يتدخل فى أىِّ أمر من أمور الحياة العلمية ولا يفسدها أبداً، بل نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالبحث فى آياته، وأن نزيد من البحث، فها هو ذا رسول الله ﷺ يأمرنا بأن نبحثَ عن شئون الدنيا على ضوء التجربة.

وأراد الله أنْ يفصلَ بين أمور العلم التجريبى وأمور الدين، وأراد أن يحمى دينه من تدخُّل أىّ فئة تدَّعى أنها تملك كلامَ الله عز وجل، فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله.

مثال ذلك ما قاله الرسول عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم فى أمر تلقيح النخل، ونعرف أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طَلع الذكورة ونُلقح به الأنثى من النخيل فيخرج التمرُ ناضجاً، وإنْ لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة.

والسر فى إنتاج النخيل لثمار غير ناضجة أن التلقيح قد تمّ بواسطة الريح التى تنقل القليلَ من حبوب اللقاح، ولكن التلقيح اليدوى هو الذى يزيد من جودة الثمار، وقال الرسول ﷺ مرة للصحابة ما يمكن أنْ يُفهم منه ألاَّ يقوموا بتلقيح النخيل.

وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة، بل أثمر ثماراً غير مكتملة النضج، واستند الرسول ﷺ فى ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر] وهذا قولٌ صحيح

صادق حكيم نجد آثاره فى السحاب الذى يتحـول إلـى مطـر نتيجـة اتصال الموجب بالسالب.

ونجده فى معظم النباتات من قمح وذرة وفاكهة وغير ذلك، فطَلْع الذكَر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة فى النباتات القريبة فتُلقحها، وتنقل الرياحُ كذلك اللقاح الخفيف، واللقاح عندما يكون ثقيلَ الوزن يحتاج فى بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة.

ولذلك عندما فوجيء الرسول ﷺ بقلّة إنتاج النخيل فى العام الذى لم يُلقّح فيه بعضُ الصحابة نخيلهم قال: ((أنتم أعلمُ بأمور دُنياكم)).

وبهذا حسـم الرسـول ﷺ الأمـر ولـم يَعُـدْ لعلمـاء الـدين أنْ يتدخلوا فى أى أمر لا تسـتقيم بـه الحيـاة إلا بنـاءً علـى التجربـة المعملية، ولذلك يُقال عـن الإسـلام أنـه: ديـن العلـم، لأنـه أتـاح لرجال العلم أن ينطلقوا فى تأمل آيـات الله فـى هـذا الكـون، بـل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون.

سورة النحل

سُورَة النَّحل

آياتُ الله لا تتعارض

﴿ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾

[النحل]

الليل والنهار آيتان واضحتان، والليل يناسبه القمر، والنهار يناسبه الشمس وهم جميعاً مُتعلِّقون بفعل واحد وهم نَسَقٌ واحد، والتسخير يعنى قهرَ مخلوق لمخلوق ليُؤدى كلٌّ مهمته وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر، كُلٌّ له مهمة.

فالليل مهمته الراحة، والنهار له مهمة أنْ يكدحَ الإنسانُ فى الأرض ليبتغى رزقاً من الله وفضلاً، والشمسُ جعلها الله مصدراً للطاقة والدفء، وهى تعطى الإنسانَ دون أنْ يسألَ ولا تستطيع هى أنْ تمتنعَ عن العطاء.

وهى ليست ملكاً لأحد غير الله، بل هى من نظام الكون الذى لم يجعل اللهُ سبحانه لأحد قدرةً عليه حتى لا يتحكَّم أحدٌ فى أحد، وكذلك القمر جعل له اللهُ مهمةً أخرى.

يقول الله تعالى: ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾ [النحل]

يقول: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص]

ولا يظنّ ظَانّ أن هناك مهمةً تتعارض مع مهمة أخرى، بل هى مهام متكاملة، وسبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

أى: أن الليل والنهار إنْ تقابلا فليسَا متعارضين، كما أن الذَّكَر والأنثى يتقابلان، لا لتتعارض مهمةُ كلٍّ منهما بل لتتكامل.

ويضرب الله المثلَ ليُوضّح لنا هذا التكامل فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

المَرْأةُ الجَاهِلِيَّة

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

كانتْ المرأةُ قبل الإسلام كائناً حياً مُهملَ الشأن، ضائعَ الحقوق، فهى إذا وُلدتْ فإنَّ النظرةَ إليها كأنثى لم تَكُنْ مثلَ النظرة إلى الذَّكَر، ولأن الفاحشة كانت منتشرةً فى الجاهلية فقد

كانتْ النظرة إلى الأُنثى عند ولادتها أنها مصدرٌ أو سببٌ لهذه الفاحشة، والفاحشةُ تأنفُ منها الفطرةُ بطبيعتها.

ولذلك كان الإنسانُ الذى يرتكب الفاحشة يتوارى عن الأنظار حين يرتكبها، ولم يبحث كإنسان عمَّا يتجنَّب مجتمعه هذه الفاحشة، وإنما لجأ إلى جريمة كبرى وهى القتل، قتْل الأنثى وهى صغيرة حتى لا تكبر وتجلب له العار بمخادنة أحد الذكور مرة واحدة أو على الدوام.

ولقد كانت وسيلته إلى القتل وسيلةً وحشيةً، فهو يحفر للصغيرة وهى دون الوعى حفرةً حين تقف فيها تتجاوز قامتها، ثم يُهيل عليها الترابَ وهى حيَّة، وعندما تدرك ما يُراد بها من إهالة التراب عليها تستغيث، ولكنها لا تجد مَنْ يُغيثها.

والذى يفعل بها هذا هو أبوها الذى جاءتْ من صُلْبه والأمّ التى حملتْها ووضعتْها وحضنتْها لا تستطيع أنْ تردّ عنها هذا المصير، فهى وإنْ كانتْ قد أفلتتْ منه لبقية عقل فى رأس أبيها فإنها لا تقدر على مواجهة زوجها ليترك ابنتها تعيش، فرُبما مال إليها بسيف أو عَصًا فقتلها.

وقتْل الأُنثى هو قرينُ الإشراك بالله، فالله سبحانه وتعالى يقول فى شأنهم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

للوقاية من العصيان

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

خُلقَ الإنسانُ ضعيفاً وخُلقَ هَلُوعاً ومع ذلك ذنوبه كثيرة ؛ لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

ويقول رسول الله ﷺ: ((لا يدخل أحدُكم الجنةَ بعمله، إلاَّ أنْ يتغمَّده اللهُ برحمته. قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: حتى أنا)).

والإنسان يرتكب ذنوباً بدرجات متفاوتة، فإذا حكم فقد يظلم، وإذا ظنَّ فقد يسيء، وإذا تحدَّث فقد يكذب، وإذا شهدَ فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلَّم فقد يغتاب، ولا يمكن لأحد منا أنْ ينسبَ الكمال لنفسه حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى الكمال، فالكمال لله وحده.

ورسول الله ﷺ يقول: ((كلُّ بنى آدم خطَّاء، وخيْرُ الخطَّائين التوابون)).

وفى وصفه للإنسان فى القرآن يقول الحق سبحانه: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى ألاَّ تمنعنا المعصيةُ عن أن ندخل إلى كلِّ عمل باسم الله، فعلَّمنا أنْ نقولَ (بسم الله الرحمن الرحيم) لكى نعرفَ أن البابَ مفتوحٌ للاستعانة بالله، وأن المعصيةَ لا تمنعنا من الاستعانة فى كلِّ عمل بالله، لأنه رحمنٌ رحيم، فيكون الله قد أزال وحشة الإنسان من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى.

مَطلوباتُ الإيمانِ

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل]

الوفاء أنْ يَفىَ الإنسانُ بما تعاهدَ عليه، والعهود لا تكونُ فى المفروض على الإنسان، وإنما فى المباحثات، فالإنسان حرٌّ أنْ يقابلَ إنساناً آخر فى يوم ما، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء فى يوم أو ساعة ما فى مكان فقد تحوّل الأمر من المباح إلى المفروض، وأصبح كلُّ واحد من المتفقين مُلزماً بأنْ يفىَ بعهده.

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل]

وعهد الله هو الشيء الذى تعاقد الإنسانُ بفعله مع ربه، وأولُ عهد للإنسان مع ربه هو الإيمان به، وما دام الإنسانُ قد آمنَ بالله فلا بُدَّ أنْ ينظرَ إلى مطلوبات هذا الإيمان.

والإخلال بهذه المطلوبات أو ببعضها يُعدُّ نَقضاً فى الإيمان، لأن الإيمان بالله يقتضى أنْ يشهدَ الإنسانُ بما شَهد اللهُ به لنفسه سبحانه، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ.. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فأولُ عهد بين الإنسان وربه هو عهد الإيمان بالوحدانية التى يجب تنفيذ تكليفات الإيمان بها، لذلك فإن اللهَ لم يُكلِّف الكافر لأنه ليس بينه وبين الله عَهْدٌ، وإنما كلَّفَ المؤمنين فقط.

والعهد بين الناس بعضهم بعضاً مأخوذٌ من باطن العهد الإيمانى بالله تعالى، لأن الناسَ حينما يتعاهدون يُشهدونَ اللهَ على عهدهم. أى: أنهم يُدخلون اللهَ بينهم توثيقاً لمَا تعاهدا عليه.

وعلى الجانب الآخر فعدمَ الوفاء بالعهد يُدخلُ الناسَ فى دائرة من الفساد المُتراكب الذى يُسبِّبُ فساداً كونياً يُحقق رَهقاً وتَعباً للإنسان على الأرض.

مكارم الأخلاق فى آية

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ [النحل]

قال ابنُ مسعود: أجْمعُ آيات القرآن للخير هذه الآية. عندما نزل قول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ.. ۝٩٠ ﴾ [النحل]

وذلك لأنها جمعتْ كلَّ الفضائل التى يمكن أنْ تكونَ فى القرآن الكريم.

وقد نزلتْ هذه الآية على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وهو يجلس مع عثمان بن مظعون، ذلك الرجل الذى كان يتمنى له الرسول أنْ يُسلمَ لمَا يجد فيه من خصال الخير.

ورأى ابنُ مظعون الرسولَ ينظر إلى السماء فسأله عمَّا به، فقال له: نزل علىَّ الساعةَ جبريلُ، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ [النحل]

فاستقرَّ الإيمانُ فى قلب ابن مظعون بهذه الآية الجامعة لكلِّ خصال الخير، ثم ذهب فأخبر أبا طالب، فلمَّا سمع أبو طالب ما قاله ابنُ مظعون

فى الآية قال: ((يا معشر قريش، آمنوا بالذى جاءَ به محمدٌ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق)).

ويُروَى أن رسولَ الله ﷺ وهو يعرض نفسه على القبائل، وكان معه أبو بكر الصديق وعلىّ. قال علىّ: فإذا بمجلس عليه وقارٌ ومهابةٌ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، فقام إليه مقرون بن عمرو قائلاً: إلى أىِّ شيء تدعُونا يا أخا قريش؟

فقال ﷺ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فقال مقرون: إنك دعوتَ إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال أفكتْ –أى: كذبتْ– قريشٌ إنْ خاصمتْك وظاهرتْ عليك.

أخذ عثمانُ بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبى جهل فأخذها عكرمةُ ونقلها إلى الوليد بن المغيرة، وقال له: إن آيةً نزلتْ على محمد تقول: كذا وكذا. ففكَّر الوليدُ بن المغيرة فيما سمع وقال: والله إن له لَحلاوةً، وإن عليه لَطلاوةً، وإن أعلاه لَمُثمرٌ، وإن أسفله لَمُغدقٌ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه، وما هو بقول بشر.

وقد صارَ قوْلُه هذا شهادةً من الكافرين للقرآن على مَدى الزمن.

الذين يُبدِّلون نعمةَ الله

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

كلُّ كائن فى الوجود يعرف قضيةَ الإيمان وقضيةَ التوحيد، وكلُّ مَنْ فى الوجود ينفعل لربه.. وهكذا كل الأشياء التى تحفظ للإنسان حياته أو نوعه. فماذا عن حال مَنْ يتمرَّد على الله سبحانه وتعالى؟

إنه سبحانه قد يقول للأسباب: انقبضى عنه. ونرى ذلك فى حال بعض البلاد على ألوان مختلفة، فالبلاد التى تقع فى منطقة يُعرف عنها أنها دائمةُ المطر، فإننا نجد الله عز وجل يخرق طبيعةَ البيئة فتصير إلى جفاف، وغيرها التى تستطيع أنْ تصلَ إلى الفضاء الخارجى لا تقدر على مواجهة إعصار، وذلك ليتأكدَ لنا أن يدَ الله سبحانه وتعالى فوق أسباب الكون.

ونرى أن اللهَ سبحانه وتعالى قد أفاءَ على بعض الناس من النعمة الشيءَ الكثير والواسع فيطغى هؤلاء الناس فيُمهلهم الله إلى أنْ يعلوَ أمرُهم، ثم يأخذهم أخْذَ عزيز مُقتدر.

وحياتنا المعاصرة خيرُ شاهد على ذلك، فكلُّ بلد أخذتْ نعمةَ الله لتُحاجَ بها اللهَ وتكون ضد منهجه نجدها تبوء بالفساد، ويأتى بأس أهلها

فيما بينهم شديداً أو يُخربون بيوتهم بأيديهم، وكم من بلاد كانت متعةُ الناس أنْ يذهبوا إليها للترف أو الانفلات، ثم يأتى بأسُ أهلها بينهم وتُخرب بأيدى أبنائها.

وفى واقع الكون ما يُؤيّد صدقَ ذلك، وكأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول لنا: اعتبروا يا أُولى الأبصار. فيقول: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

وهذا واقعٌ نراه فى كثير من البلاد التى أخذتْ نعمة الله فبدّلتها كفراً فأحلُّوا قومهم دارَ البَوار.

والكفرُ بنعم الله إما أنْ يكونَ بمعنى ستْر النعمة واستعمالها فى معاصى الله، وقد يكون الكفرُ بنعمة الله بالتكاسُل عن استنباط النعمة من مظانِّها. وفسادُ العالم الآن يأتى من أُناس كسالى عن استنباط نعَم الله الموجودة فى كوْنه، وأُناس يجدون ويهتمون فى استنباط نعَم الله ويحسبونها لأنفسهم ولا يعطون منها للضّعاف من الناس، ويستخدمون النعمةَ فى المعاصى.

فكان قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف]

الظَّالمُونَ أنفُسَهُم

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

الشرك بينه وبين الظلم نَسبٌ، فالشرك ابنُ الظلم، لأن الشركَ هو أنْ يأتيَ الإنسانُ إلى مَنْ لم يخلق، ومنْ لم يرزق، ومنْ لـم يمـنح شـيئاً ويشركه مع المانح والمُعطى والرازق فيما منح وما رزقَ، وما أعطى.

والظلم نوعان: ظلمُ القمة وهو الإشراك، وظلم فيما شـرعت القمـة ويتمثَّل فى استباحة حقوق الناس. وفى الحالتين لا يُضار فى الظلـم إلا الإنسانُ نفسه، لأن الله غنيٌّ عن الناس جميعاً.

والناس إنْ آمنوا أو لم يؤمنوا فلن ينقص الإيمان أو عدمه من مُلْك الله شيئاً ثم يأتي يوم القيامة فيعذب الله مَنْ ظلم، ويُدخل الجنـةَ مَـنْ آمـن وأصلح، لذلك قال سبحانه: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

إذن: فظُلم الناس يعود على أنفسهم، لأنه لا أحدَ من خلق الله يستطيع أنْ يظلم اللهَ سبحانه وتعالى، إلا أن رحمةَ الله بعباده جعلتْ التوبة لمَـنْ رجع وأناب إلى الله، حتى ولو كان يشرك به.

فاليهود الذين ظلموا أنفسهم وعبدوا العجـلَ مـن دون الله أمـرهم موسى عليه السلام أنْ يتوبـوا عـن ذلـك، يقـول تعـالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة]

وقد كان اللهُ سبحانه وتعالى يستطيع أنْ يأخذَ بنى إسرائيل بهذا الذنب، ويُهلكهم بما حدث بالنسبة للأمم السابقة، إلا أن رحمته التى وسعتْ كلَّ شيء جعلتْ التوبةَ باباً واسعاً لمَنْ أسرف على نفسه وبالغ فى المعصية ونسىَ الحقَّ، وأراد أنْ يعودَ إلى الصواب، فإن بابَ الله مفتوحٌ حتى يُغرغر. أى حتى يصلَ إلى لحظة الاحتضار الأخيرة.

مَعيَّة الله

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]

منح اللهُ سبحانه وتعالى الناسَ من نعَمه الكثير والعطايا: البارّ منهم والفاجر، إلا أنه خَصَّ التُّقاة منه بما لم يخصّ به أحداً حيث منحهم نعمة (المعية)، ومَنْ كان فى معيَّة ربِّه فمَنْ مثله، ومن أين يأتيه الأذى أو الكيد أو المكر.

يقول الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]

والإحسان مرحلةٌ تاليةٌ للتقوى، حيث يكون المُتقى قد استطاع تجنُّب ما ينزل عليه غضبُ ربه أو يُصيبه بعذابه، أما المحسنون فأولئك الذين عملوا لمَا هو أكثر وأرْحبُ وأوسع، وطمعوا فى رضوان ربهم عليهم وتقريبهم إليه ومنحهم فى الدنيا والآخرة نعمة الثواب الجزيل.

وقد تجسدتْ المعيَّةُ خيرَ تجسيد فى رحلة رسولنا الكريم ﷺ من مكة إلى المدينة، تلك الرحلة التاريخية التى كانت إيذاناً بإقامة دولة، وتربية أمة، وظهور حضارة عادلة.

فمنذ خروجه ﷺ من بيته وعَجْز المشركين عن رؤيته بما غَشيهم من نُعاس، ودخوله الغارَ هو وصاحبه، وفشل سراقةُ فى اللحاق به كان فى معيَّة الله سبحانه وتعالى.

من هنا كان قول رسول الله ﷺ لأبى بكر الصديق ﷺ وهما فى الغار الذى قال: ((لو نظرَ أحدهم تحت قدميْه لَرآنا)) فأجابه: ((يا أبا بكر، ما ظنُّكَ باثنين، الله ثالثهما)).

أى: أنهما فى معيَّة الله، والله لا تُدركه الأبصار، فمَنْ كان فى معيَّته فى لحظة كهذه لا تُدركه الأبصار. ومثله مَنْ رضى بالابتلاء وصبر عليه كان فى معيَّة ربه، ومَنْ خرج مجاهداً فى سبيل الله كان فى معيَّة الله.

سورة الإسراء

سورة الإسراء

الهداية الأقوم

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

الهداية هى الطريق المُوصِّل للغاية من أقرب وجه وبأقلّ تكلفة، وهى الطريق المستقيم الذى لا التواءَ فيه.

والله سبحانه وتعالى يهدى الجميع ويرسم لهم الطريق، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فمَنْ سار فى طريق الهداية التى عرَّفها له الله زاده هُدىً، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ.. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء] إشارة إلى أن الناسَ قبل الإسلامَ كانت لديهم قيمٌ ونظمٌ جيدة وقوانين تحكم أمورهم، وقد نقل إلينا التاريخُ عن حكماء العرب وحلف الفضول وغيرهم الذين كانوا يدعون إلى القيم الطيبة، إلا أن العملَ البشرى غالباً ما يكتنفه القصور، لأن الكمالَ لله سبحانه وتعالى.

لذا فإن الإسلام عندما جاء لم يضرب بكلِّ القيم عُرض الحائط، إنما أقرَّ بعضها، وسكت عن البعض الآخر، وحارب الفاسد منها، وأمر المسلمين بتجنُّبها والابتعاد عنها.

لذلك فإن قوله تعالى: ﴿ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ.. ۝ ﴾ [الإسراء] أي: الأكثر استقامةً وسلاماً، لأن منهج السماء يضع وسائل الوقاية قبل حدوث الجريمة، ويمنع المرضَ من أساسه، لأن هناك فارقاً بين الوقاية والمرض وبين العلاج والمريض.

أما أصحاب القوانين الوضعية فيُعدِّلون نُظُمهم لعلاج ما جَدَّ من المرض، ولا يستطيعون أنْ يضعوا وسائلَ الوقاية التى تمنع وقوعَ المرض، لأن عقولهم قاصرةٌ عن ذلك.

الوقاية من الأمراض

هناك فَرْقٌ بين علاج المرض والوقاية منه، لأن الوقاية تمنع المرض من أساسه فلا يقع، أما العلاج فيتمّ بعد وقوع المرض وظهور آثاره، وهذا هو الفرق بين الإسلام وغيره من القوانين الوضعية.

فالإسلام يمنع المرض من أساسه، لأنه يضع منهجاً (للوقاية يظل قائماً) حتى تقوم الساعةُ، فإنْ تخلَّى المسلمون بعضَ الوقت عن هذا المنهج غفلةً منهم، ووقعوا فى الداءات التى تحدث نتيجة انصرافهم عن سُبُل الوقاية والسلام، فسرعان ما ينتبهون إلى وسائل الوقاية فسيعودون إليها.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ.. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء] أى: أن منهجَ الله أعظمُ من قوانين البشر الوضعية وأكثرُ فائدةً لهم، لأنه هو الخالق الصانع الذى يعرف طبيعة صنْعته، وما ينفعها وما يفيدها وإن تغيرتْ بها الأزمنة والأمكنة.

فستظلّ حُجَّة الإسلام ظاهرة على كل شيء إلى أنْ ينصرفَ الناسُ جميعاً عن مناهجهم، ويتبعون منهج الإسلام فى نُظم الحياة، وإنْ لم يؤمنوا به.

وهو ما أرادته الآية فى قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]

والظهور هنا لا يعنى كثرة عدد أتباعه، وإنما هو ظهور حُجَجه وظهور الحاجة إليه مع ظهور النُّظم والقوانين الوضعية.

فلسفة الدعاء

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء]

الدعاء لله يكون جميلاً إنْ قصد به الإنسان العبودية والذلّة لله، أما الإجابة فهى إرادة الله، فإذا اعتبر الداعى أن دعاءه يجب أنْ تتحقق به الإجابة فهو لا يقْدر الأمر حقَّ قدْره.

لذلك يقول الله فى الحديث القدسى: ((مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيتُه أفضل ما أعطى السائلين)).

كما قال الرسول الكريم صلواتُ الله وسلامُه عليه لعائشة رضى الله عنها عندما سألتْه عمَّا تقوله إذا صادفتْ ليلة القدر، فقال لها: ((قولى: اللهم إنك تحبُّ العفو فاعْفُ عنِّى)).

ولا يوجد جمالٌ أحسن من العفو، ولا يوجد خيرٌ أحسن من العفو، فقد يدعو الإنسانُ اللهَ بأشياء يظن أن الخير فى تحقيقها، ولا يكون فى تحقيقها خيرٌ له، يقول الله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ۝ ﴾ [الإسراء]

فقد يدعو الإنسانُ ربَّه ويقول فى نفسه: لقد دعوتُ ربِّى فلم يستجبْ لى، دون أنْ يدرك أنَّ الله يُقدِّر للإنسان ما ينفعه، فمن الخير للبعض ألاَّ يُجاب إلى ما طلب، لمَا فى ذلك من خير لا يدركه، أو أنه لا فضلَ له أنْ يُجابَ إلى هذا الطلب فى وقت لاحق.

وقد يحجب اللهُ الإجابةَ عن الإنسان، لأنه إنْ أعطاه فإنه يُعطيه خير الدنيا الفانية، والله يريد أنْ يبقى له الإجابة إلى خير الباقية، وهذه ارتقاءات لا ينالها إلا الخاصَّةُ من الناس.

كما أن الله سبحانه وتعالى يحبُّ من عباده الذين يحبهم أنْ يذكروه دائماً ويدعوه، وهو ما جاء فى الحديث القدسى: ((إن من عبادى مَنْ أُحبُّ دُعاءهم، فأنا أبتليهم ليقولوا: يارب)).

لأن الإنسانَ المؤمنَ لا يجعل حظَّه من الدعاء أنْ يُجاب إنما حظّه من الدعاء ما قاله الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان]

الإنسان.. بين الدعاء والإجابة

الدعاء يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يُعينه عليه، وعندما يشعر الإنسان أنه عاجزٌ فهو يرتكن إلى مَنْ له مطلق القدرة، لأن قدرةَ الإنسان محدودة.

ولذلك عليه إذا طغى أو تكبَّر فى وقت ما فإن عليه أنْ يراجعَ نفسه ويعرف مكانته ومنزلته بأنه عَرَضٌ زائل لأنه يحتاج إلى أنْ يدعوَ الله.

والدعاء تضرُّع، وذلَّة وخشوع وإقرار بأن الإنسانَ عاجزٌ ويطلب من الله سبحانه وتعالى المَدد والعَون، وهذا الدعاء والاستحضار يمثل للإنسان استدامة اليقين الإيمانى.

وما جعل الله عز وجل للبشر حاجات إلا من أجل ذلك، لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرورُ فيأتى له بحاجة تعزّ وتعجز فيها الأسباب فيقف ليدعو بالدعاء، بل عليه الدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع، لأن الإنسان لو لم يَدْعُ فستسير الأمور كما قدَّر الله لها.

ومن الناس منْ يطلب بالدعاء أشياء مُضرّة، يقول سبحانه: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء]

فعلى المرء ألاَّ يتعجلَ بالدعاء طلباً لأمنيات قد تكون شراً عليه، وعليه أنْ يحذرَ أنْ ييأسَ حين لا تُستجاب دعوته التى فى باله، لأن الله يُحقق الخير لعباده، فلو حقّق للإنسان بعضاً مما يدعو فقد يأتى منها الشر.

فعندما يقول الإنسان: إن الشيء الفلانى الذى كنتُ أتمناه تحقّق وجاء شراً علىَّ، مثال ذلك: عندما يحجز للسفر على طائرة، ولكن لظروف ما تأخَّر عن موعدها وأقلعتْ ولم يلحق بها فإنه يحزن، لأن مصالحه تعطلت، ثم يعلم بأن الطائرة قد سقطت.

العمل للآخرة.. ليس عبادةً فقط

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء]

إرادة الإنسان مسئولة عن نهايات تصرُّفاته ونهايته أيضاً، وهذا من عدالة الله سبحانه وتعالى الذى حرَّم الظلم على نفسه، وسمَّى نفسه

العادل، فمنح الكائنات كلها حريةَ الاختيار فى وجودها الكونى، فاختارت كائناتٌ أن تكونَ مجبولةً على أفعالها، واختارتْ كائناتٌ أخرى أنْ تكونَ مختارة فى أفعالها، وكان الإنسانُ ممَّنْ اختار حرية الفعل أو التركْ.

وصار الإنسان يستطيع أنْ يُحدِّد ما يريد لنفسه فى الدنيا وما يريد لنفسه فى الآخرة، فمن الناس مَنْ أحبَّ أن ينال حظه ونصيبه فى الدنيا، ومنهم مَنْ أحب أنْ تكون الآخرة له مهما يكُنْ حظّه من الدنيا، وكلاهما عملَ لمَا يريد، وكلاهما يمنحه اللهُ على قدْر جهده فيما أراد، حيثُ يقول تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن: فمَنْ أراد الدنيا عليه أنْ يعمل لينالها ويمنحه اللهُ فى دنياه جزاءَ عمله، لأنه عمل هذا العمل ابتغاءَ الشهرة مثلاً أو الثراء أو المنصب أو الجاه وبحصوله على ما يريد لا يكون له نصيبٌ من الآخرة.

أما مَنْ أراد الآخرة فعليه أنْ يعمل لأن الله أمره بالعمل والاجتهاد وتعمير الارض. أى: أن يعمل ابتغاء وجه الله وطمعاً فى رضاه ونَوالاً لجنته التى وعد المتقين، وخوفاً من غضبه، وهروباً من عذابه، واتقاءً لناره التى توعد بها الكافرين والعاصين والمشركين.

وعمل المؤمن للآخرة ليس هو العبادات فقط، وإنما يشمل جميع مُقوِّمات الحياة بشرط أنْ يكونَ دافعه الايمان.

قال عتبة بن سفيان لمُعلِّم أبنائه: ليكُنْ أول ما تبدأ به من إصلاحك أبنائى إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودةٌ بعينك، فالحُسْن عندهم ما استحسنتَ، والقبيح عندهم ما استقبحتَ.

علِّمهم كتاب الله، ولا تُكرههم عليه فيملُّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه.

ثم روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه.

ولا تُخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكِمُوه، فإن ازدحام الكلام فى السمع مُضلة للفهم، وعلِّمهم سيَر الحكماء وأخلاق الأدباء.

وجنِّبهم محادثة النساء، وتهدَّدهم بى وأدِّبهم دونى.

وكُنْ لهم كالطبيب الذى لا يجعل بالدواء حيث يُعرف الداء، ولا تتكل على عذرى، فإنِّى قد اتكلتُ على كفايتك، وزدْ فى تأديبهم أزدْكَ فى برِّى إن شاء الله.

الطفيليات الآدمية

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

تقدُّم المجتمع ورفاهيته يتطلب أنْ ييأسَ الكسولُ الخاملُ والطفيليّ العَالةُ على المجتمع، وأنْ يزدادَ نشاطَ المُجدّ الدءوب لأنه يجد آثارَ جسده ودأبه عائداً عليه، لا على الطفيليين الذين يستمرئون الحياةَ على دماء غيرهم.

فالطفيليات الآدمية أكثرُ خطورةً من الطفيليات البكتيرية التى تسبب للانسان الأمراضَ.

ولا يمكن للكسالى والطفيليين أنْ ييأسوا ويندفعوا إلى الطريق المستقيم، وهو طريق العمل المثمر، ويزداد المجتهدون اجتهاداً إلا فى مجتمع عادل يعطى كلَّ ذى حقٍّ حقَّه، ولا يجور أحدٌ فيه على أحد، ولا يأخذ واحدٌ أكثرَ من حقه أو حقاً غير حقه ويُحرم الآخرُ من حقّه الطبيعى.

وهو ما يشير إليه القرآن فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والآية لا تخصّ الكيْل فقط أو الميزان فقط، وإنما جميع ما يحقق العدالة وإيصالَ الحقوق إلى أصحابها وحرمان الطامعين فى حقوق الآخرين من تحقيق مآربهم.

وإذا تحقّق ذلك يئس الطامعون من تحقيق رغباتهم الجشعة، واطمأن المجتهدون فى سائر نشاطات الحياة، وبذلك تُعالج أمراضُ النفس بالمران وتزداد النفسُ السويّة استقامةً.

وفى الناحية الأخرى لو انتشر الغشّ والخداع، وانتصرتْ طبقاتُ الطفيليين ازدادَ المجتمعُ تأخّراً وانتشر الجشعُ والتدنّى فى طبقات المجتمع، وانحرفتْ النفوس السَّويَّة، وازدادتْ النفوسُ المريضة مرضاً وعَمَّتْ الفوضى.

العلاج الناجح لضعف اليتيم

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

من الظواهر الطبيعية التى تُوجد فى المجتمعات حالةُ اليتيم التى تظهر نتيجةَ وفاة الأب وأطفاله صغار، واليُتْم مظهرٌ من مظاهر الضعف التى يجب التعامل معها معاملةً خاصةً لمُعالجة سلبياتها وآثارها التى تؤثر على صاحب الحالة وعلى مَنْ حوله، بل على مَنْ يتوقَّع حدوثَ ذلك لبَنيه.

ولأن المجتمع الإسلامى مجتمعٌ وضع اللهُ له منهجه فى الحياة، فقد جاء منهجاً متكاملاً يعالج كل الثغرات وأسباب الضعف، فوضع لليتيم حقوقاً يستطيع أنْ يعيشَ ويكبرَ حتى يصل مبلغ الرجال، كما وضع لليتيم الذى ترك له أبوه مالاً ما يحمى ماله فى مرحلة الضعف.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ومن دقة القرآن لم يقُلْ: لا تأكلوا مال اليتيم. بل قال ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ ليُحذِّرنا من مجرد الاقتراب أو التفكير فى التعدِّى عليه، بل إن الاقتراب يجب أنْ يكون لمساعدته بتنمية ماله وزيادته حتى لا ينفد بالإنفاق، لذلك وصف الله هذا الاقتراب بـ (الأحسن)، وهو درجة فوق الحسن.

كما أن المجتمعَ الذى يكون اليتيم فيه مُكرَّماً يجعل أبناءه لا يخشوْن الموت وترك الأبناء، فإذا دعا داعى الجهاد خرج إليه دون خوف من استشهاد أو موت.

حتى الجمادات لها حياة !

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

كل الموجودات فى ملكوت الله الكبير تنبض بالحياة، وإن اختلفتْ أشكال الحياة من موجود إلى آخر باختلاف طبيعته.

الذين حاولوا تعريف الحىّ وتعريف الميت فاتَهُم أنْ يعرفوا الحياةَ نفسها التى هى قيامُ الموجود بما يُؤدى به مهمته إلا أن الحياة تختلف باختلاف أنواع الموجودات من إنسان وحيوان وجماد.

حياة الإنسان فيها حركة وحسّ وفهم وتفكير وتطوير وابتكار وغيرها مما حباه الله به مثل الذاكرة واستشراف المستقبل والخلود الأخروي، ثم هناك حياة الحيوان وهى أقل درجة من حياة الإنسان. ثم حياة ثالثة وهى حياة النبات التى تتميز بالنمو والحس كما أثبت العلماء ولكنها محرومةٌ من الحركة فهى أقل من الحيوان، ثم هناك حياة رابعة وهى حياة الجمادات، وإلا فبماذا نفسر انجذاب برادة الحديد إلى القضيب المُمغنط إلا بأنه لونٌ من الحياة.

المتأمل فى كلام الخالق سبحانه وتعالى يستطيع أن يستنتج أن كل ما فى الكون حىّ، وإن كان لكل مخلوق حياته الخاصة به.

فإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ.. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال] نجد أن الحياة تاتي في مقابل الهلاك.

فإذا قرأنا قوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ.. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] نجد أنه ما دام كل شيء هالكاً وأن الهلاك هو مضاد الحياة. إذن: فكل ما يهلك لا بُدَّ أنه حيّ وبالتالى كل الموجودات حية وكلّ الموجودات ستهلك بأمر الله.

فمَنْ يعتقد أن الحياة هى ما يتشابه فى الحس والحركة مع الإنسان فهو مخطئ فالحياة فى كل شيء بحسبه. أى: تختلف من موجود إلى موجود.

وعلى هذا نستطيع فَهْم قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] على غير ما قال به بعضُ المفسرين بأنه تسبيحُ دلالة فيما يختصّ بالجمادات.

فلو أراد الله ذلك لَمَا اختتم الآية بقوله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] وإلا فكيف سمع سليمانُ عليه السلام قولَة النملة وتبسَّم ضاحكاً من قولها وكذلك حواره مع الهدهد وتسخير الجبال مع سيدنا داود للتسبيح معه.

إذن: فلكلٍّ ما فى الوجود حياةٌ ولغة يتكلَّم بها، ولكنها حياةٌ تناسب مهمته

بشرية الرسول.. حتمية

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

من الأمور التى أخذت جدلاً كبيراً منذ بدء الرسالات السماوية حتى عصرنا الحالى: بشرية الرسول، والآيات كثيرة التى توضح أن من الحجج التى كان يسوقها المكابرون للتدليل على أحقيّتهم فى العناد، ومنها:

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]، وقوله: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء] وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومن هنا ندرك أن الذين طمس اللهُ على قلوبهم، وتملّك المرضْ منها اتكأوا ضمن ما اتكأوا عليه من حُجج على بشرية الرسول، فى حين أن الطبيعى أن يكونَ مُبلِّغ الرسالة من جنس الذين يُبلّغهم، ولا بدَّ أنْ يكون قد عاش بينهم فترةً قبل الرسالة، واشتُهر بمحاسن الأخلاق كالأمانة والصدق حتى لا يُكذّبوه ويكون قدوة.

كما أنه سيقوم بتطبيق المنهج عملياً أمامهم، ولو كان من الملائكة أو من جنس آخر لادَّعى المكابرون أنه لا طاقةَ لهم على عمل ما يعمل الملائكة، فلا يستطيعون إقامة المنهج الذى أُرسلَ إليهم.

إذن: فبشرية الرسول حتمية، وكل مَنْ يحاول أنْ يعطىَ الرسولَ صفةً غير البشرية، إنما يحاول أنْ ينقصَ من كمالات رسالات الله، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً عن أن يُحوِّل البشر إلى ملائكة، كما حكى القرآن فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزخرف]

والمتأمل فى تاريخ الرسل يجد مَنْ إذا ذُكِّر بأفعال الرسول قال: إنه الرسول ولكننا ضعفاء لا نستطيع أنْ نلتزم بكلٍّ أفعاله، فما بالنا لو كان الرسول هذا ملاكاً، أو من أىِّ جنس آخر، لَتحلَّلَ الناسُ من المنهج بسهولة ووجدوا الحُججَ التى يُبرِّرون بها فعلهم.

كيفية الذكر والعبودية لله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء]

ذكر الله تتعدد وسائله وطُرقه وكيفيته وعبوديته، فالذكر هو مرور الشيء بالبال، وهو ما يُسمّى بالذكر فى النفس، وإنْ كان باللسان ولا يُسمع فهو الذكر فى السر، وإن كان جهراً، فإما جهرٌ

مقبول، أو جهرٌ غيرُ مقبول، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذكرُ إلى إزعاج – والعياذ بالله.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء]

ويقول أيضاً ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

والذكر هنا على حالَيْن: تضرّع أي بذلّة، فقد يذكر الإنسان أحداً بإكبار أما عندما يذكر الله فلا بُدَّ أنْ يذكره بذلَّة وعبودية.

والحالة الثانية: الذكر بالخوف من الله لأن الإنسانَ كلما ذلَّ لله أعزَّه الله.

ولذلك كانت العبودية مكروهة في البشر، لأنها تعطي خيرَ العبد للسيد، لكن عبوديةَ الله عز وجل تُعطي خيرَ الله لعبده.

كما نجد قول الله تعالى يمتنُّ على رسوله ﷺ:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

[الإسراء]

سورة الكهف

سورة الكهف

ضَرُورَةُ الإعْجَازِ القُرْآنِى

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف]

الإعجاز الموجود فى القرآن الكريم، فى أسلوبه، وفى حقائقه، وفى آياته، وفيما رُوِىَ لنا من قَصَص الأنبياء السابقين، وفيما صُحِّح من التوراة والإنجيل، وفيما أُتِىَ به من علم لم تَكُنْ تعلمه البشرية.. ولا تزال حتى الآن لا تعلمه.

كلُّ ذلك يجعل القرآن لا ريبَ فيه، مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة]، لأنه لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ ما استطاعوا أنْ يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن.

ولذلك كُلَّما تأملنا القرآن نجده قد ارتفع فوق كلِّ الكتب، وفوق مدارك البشر يُوضِّح آيات الكون وآيات المنهج، وله فى كلِّ عصرٍ معجزاتٌ.

إن كلمة (ٱلْكِتَـٰب) التى وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تمييزٌ له عن كل الكتب السابقة تلفتنا إلى مَعَانٍ كثيرة، وتحدد لنا بعض أساسيات المنهج التى جاء هذا الكتاب ليُبلِّغنا بها.

وأول هذه الأساسيات أنَّ نزول هذا الكتاب يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى، حيث يقول الله تعالى فى سورة الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾

[الكهف]

لأنه يحمل منهجَ الرحمة من الله لعباده، وفيه البشارةُ بالجنة والطريق إليها، وفيه التحذيرُ من النار، وما يقود إليها، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمةٌ من الله تعالى لخَلْقه، لأنه لو لم يُنذرهم لفعلوا ما يستوجب الحمد، لأنها أرتْنَا جميعاً الطريقَ إلى النجاة من النار.

ولو لم يُنزل الله سبحانه وتعالى الكتابَ ما عرف الناسُ المنهجَ الذى يقودهم إلى الجنة، وما استحق أحدٌ منهم رضَا الله ونعيمه فى الآخرة، كما أنه حمل إلينا الاطمئنان على صحة ما فيه، فلا يستطيع أحدٌ كائناً مَنْ كان أنْ يُغيِّره أو يُلحق به سوءاً.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف]

كما أنه لم يأتِ إلا لنفع الناس، وأن الله ليس مُحتاجاً لخَلْقه، فهو قادرٌ على أنْ يقهرهم على ما شاء من طاعة، ولكنه تركَ لهم حريةَ اختيار الطاعة أو العصيان.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أجر العامل لغير الله

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

لأن الله هو الخالق الواحد الذى أوجد الإنسان ليعبده، ويخلفه فى أرضه بتعميرها، وإقامة منهج الله فيها، فإن أىَّ عمل صَغُر أو كبر يأتيه الإنسان يجب أن يكون خالصاً لله ومنتظماً فى إقامة منهجه فى الأرض ليُثاب عليه الإنسان وينال القبول من الله.

فالعامل لا يأخذ أجره إلا ممَّنْ عمل له، ولا يُعقل أن يقوم بنَّاءٌ ببناء برج كبير ثم يذهب إلى غير مَنْ كلَّفه بالبناء ليأخذه أجره، وإذا صنع ذلك استغربَ الناسُ من تصرُّفه.

لذلك مَنْ عمل واكتشف أو اخترع إيماناً بالله وتنفيذاً لأمره بتعمير أرضه فإنما يأخذ أجره من الله سبحانه وتعالى الذى يقول: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

أما مَنْ عمل لغير الله لينالَ شهرة مثلاً أو يرتفع ذكره ويُثنى عليه الناس فعليه أن يطلب أجره ممَّنْ عمل له، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وقد سُئلَ الرسول ﷺ: مَن الشهيد؟ قال: ((مَنْ قاتلَ لتكون كلمةُ الله هى العليا فهو فى سبيل الله)) لأن الرجل قد يُقاتل حميَّة أو ليعرف الناسُ أنه شجاعٌ.

وبالتالى فإن الذين قاموا باكتشافات علمية واختراعات أو أى أعمال لم يريدوا بها وجهَ الله فقد أخذوا أجورهم شهرةً وتخليداً لذكرى ومكافآت مالية وجوائز وحفلات، لأنهم أرادوا الدنيا وما نالوه هو جزاؤهم الذى يريدونه، فليس لهم غيره.

أما الذين عملوا لأن الله يأمرهم بالعمل، واكتشفوا لأن الله أمرهم فقال: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا.. ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك]. ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ.. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت] فسوف يأخذون أجرهم من الله، وإنْ أخذوا أجرَ الدنيا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

العلاج بالقرآن

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف]

لا يجوز أنْ تُلهىَ النعمةُ الإنسانَ عن المُنعمَ، وينشغل بها وينسى المُعطى، وإنما عليه أنْ يستقبلها استقبالَ الشاكر للمُنعم على ما منحه اللهُ وأعطاه.

وفى الحديث: ((ما أنعم الله على عبد من نعمة فى أهل ولا مال. فقال: ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله إلا حفظها الله، فلا يرى فيها آفةً دون الموت)).

وقد نصح الرجلُ صاحبه الذى يفخر بما يملك كما حكى القرآنُ قائلاً:

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف]

أى: أن هذا كله ليس بقُوَّتى وحيلتى، بل فضلٌ من الله، ولا شكَّ أن ردَّ النعمة إلى خالقها ضمانٌ لها واستحفاظ.

ويُذكر أن سيدنا جعفر الصادق بما منحه اللهُ من نظر وبصيرة كان يصنع من القرآن الأدويةَ لكل ما يعترى النفسَ البشرية من علل، فيقول:

عجبتُ لمنْ خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران].. فإنِّى سمعتُ اللهَ بعقبها يقول ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَن اغتمَّ ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء].. فإنِّى سمعتُ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فإنِّي سمعتُ اللهَ بعقبها يقول: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمَنْ طلب الدنيا وزينتها ولا يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف] فإنِّي سمعتُ اللهَ يقول بعقبها: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] فإنْ قالها على نعمته حُفظتْ ونَمَتْ، وإنْ قالها على نعمة الغير أعطاه اللهُ مثلها أو فوقها.

المال.. والبنون

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا.. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

المال والبنون هما العنصران الأساسيان فى فتنة الناس، وهما أيضاً زينةُ الحياة الدنيا، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

وقدْ قدَّم اللهُ المالَ على البنين، ليس لأنه أعزُّ وأغلى أو أعلى، إنما لأن المالَ عام فى المخاطب على خلاف البنين، فكل إنسان لديه المالُ وإنْ قلَّ، أما البنون فهذه خصوصية ومن الناس مَنْ حُرِمَ منها.

كما أن البنين لا تأتى إلا بالمال لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسلَ وينجب.

إذن: كلٌّ واحد له مالٌ، وليس لكلِّ واحد بنون، والحكم هنا قضيةٌ عامة وهى ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا.. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] وكلمة (زينة) أى: ليست من ضروريات الحياة، فهو مجرد شكل وزُخرف لأن المؤمن الراضى بما قُسمَ له يعيش حياته سعيداً بدون أولاد، لأن الإنسان قد يَشْقى بماله أو يَشْقَى بولده، لدرجة أنْ يتمنى لو مات أنْ يُرزق هذا المال أو بهذا الولد.

وقد باتتْ مسألة الإنجاب عقدة ومشكلة عند كثير من الناس، فترى الرجل مهموماً والمرأة مهمومة لأنه ولأنها لم يُنجبا، وربما يُرزَقان الولد ويَريَان الذلَّ على يديه، وكم من المشاكل تُثَار فى البيوت لأن الزوجة لا تنجب.

ولو أيقن الناسُ أن الإيجاد من الله نعمةٌ لاستراح الجميعُ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

وإذا كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا فقد حـدَّد لنـا النبـى مـا هو خيرٌ من هذه الزينة، وإنما جـوهرُ الحيـاة الـدنيا حينمـا قـال: ((مَنْ أصبح مُعَافَى فى بدنه آمناً فـى سـرْبه، وعنـده قُـوتُ يومـه فكأنَّما حيزتْ له الدنيا بحذافيرها)).

خَيْرٌ منَ المَالِ وَالبنَين

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

[الكهف]

ضروراتُ الحياة هى كلُّ ما يجعل الدنيا مزرعةً للآخرة، ووسيلةً لحياة باقية دائمة ناعمة مُسعدة لا ينتهى الإنسان فيها من النعيم فيتركه، ولا ينتهى النعيم منه فيتركه، لأنه نعيمُ الجنة، ولأن الحياةَ هذه هى الآخرة.

إذن: الضرورات هى: الدين، ومنهج الله، والقيم التى تنظم حركة الحياة وفْق ما أراد اللهُ من خلْق الحياة.

وهذا المنهج وهذه القيم هى ما وصفها اللهُ بأنها الباقياتُ الصَّالحاتُ فى قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

ومعنى هذا أن ما قبل الباقيات الصالحات وهو المالُ والبنون زائلٌ، وليس من الباقيات إذا ما زالتْ الدنيا، ووصف اللهُ الباقيات بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التى يَخلُد بها المشركون فى النار.

كما أن الخيريةَ عند الله أغنى الأغنياء، فقد يكون خير إنسان غير خير مَنْ هو أغنى منه، غير خير الحاكم، فما بالنا بأحكم الحاكمين.

والأملُ فى الحياة هو كل ما يتطلَّع إليه الإنسان مما لم يكُنْ به حاله، فإنْ كان عنده خيرٌ تطلع إلى أعلى منه، فالأمل الأعلى عند الله تبارك

وتعالى لأنه هو الأمل المستمر الدائم الذى لا يزول أبداً، فالدنيا زائلةٌ، وكلُّنا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ.

لذلك جاءت الآيةُ التى أردفت الآية السابقة بشكل يُصور مدى عنف هذا اليوم وشدّته على الناس، شدة تهون إلى جوارها أيُّ شدّة أخرى، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

عَنَاصِرُ الكَوْنِ لِخِدْمَةِ الإنْسَانِ

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

أمْرُ الله تعالى يأتى بأمر الخلق، فقد أوضح سبحانه أنه خلقنا من طين، بعد أنْ تكلَّم عن أمر خَلْق السماوات والأرض وقد أخبرنا من قبل ذلك أنه خلقنا من تراب وحَمأ مَسْنُونٍ من صَلصَال كالفخَّار، وهى مُتكاملاتٌ لا متقابلات.

وكذلك أوضح سبحانه أنه خلق كلَّ شيءٍ من ماء، فاختلط الماءُ بالتراب فَصارَ طيناً، ثم حَمأ مَسْنُوناً، ثم صَلصَالاً كالفخَّار، وكلها حلقات مُتكاملة.

ونحن لم نشهد الخَلْق، ولكننا نتلقَّى أمر الخَلْق عنه سبحانه، ونعلم أن الطينَ مادةٌ للزرْع والخصوبة، وعندما قام العلماءُ بتحليل الطين وجدوه يحتوى على العديد من العناصر، وأكبر

كمية من هذه العناصر هى: الأوكسجين، ثم الكربون، ثم الهيدروجين، ثم الفلور، ثم الكلور، والصوديوم، والمغنسيوم، والبوتاسيوم، والحديد، والسيلوز، والمنجنيز، وغيرها.

والعناصر فى هذا الكون أكثرُ من مائة، ولكنها لا تدخلُ كلُّها فى تركيب الإنسان، إنما تدخل فى تركيب ما ينفع الإنسان من بناء وزينة وغير ذلك، مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

[فصلت]

لقد قام أهلُ الكفر من العلماء بهذا التحليل، وذكروا تلك النتائج التى أخبرنا بها رسولُ الله فى الكتاب المُعجِز الباقى المحفوظ بأمر الله كحُجَّة مُؤكَّدة، وصَانَ هذه الحُجَّة حتى يأتيَ عالمٌ غيرُ مؤمن ويتوصَّل إلى بعض من الحقائق الموجودة فى القرآن.

ولم يحضر أحدٌ منَّا لحظةَ الخَلْق، ولكننا نشهدُ الموت، وهو نَقْضُ الحياة، ونَقْضُ الشيء يكون على عكس بنائه، ونرى مَنْ يهدمون بناء يبدأون بهدم آخر ما تمَّ بناؤه وتركيبه، فيخلعون الزجاج أولاً، وهو آخر ما تمَّ تركيبه، ثم الأخشاب ثم الأحجار.

كذلك نَقْضُ الحياةِ بالموت، تخرج روح الإنسان أولاً، ثم بعد ذلك يَيْبس ويَجفّ ليصيرَ صَلْصالاً كالفخَّار، ثم حَمأ مَسْنُوناً، أى: يُصيبه النتنُ والعفنُ، ثم يتبخَّر منه الماءُ فيصير تراباً.

ولذلك نحن نُصدِّق الذى خلقنا فى أمر خَلْقنا، ونُصدِّقه فى أمر السماوات والأرض، وعندما يقول قائلٌ بغير ذلك نقول له كما أخبر القرآن الكريم:

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

الشَّبَكة قبل السَّمَكة

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف]

المعونةُ من القادر إلى غير القادر يجب أنْ تكونَ حسبةً لله سبحانه وتعالى، وليس لإذلاله أو الضغط عليه وشراء ضميره وإرادته، كما حبّذ الإسلام أنْ تكونَ المعونةُ لا تُلجيء المحتاج إلى طلب المعونة مرة أخرى، أي: تكون معونةً كافية تغنى عن الطلب، لذلك قالوا لا تُعطنى سمكة، وإنما أعطنى شبكة، لأن السمكةَ سيأكلها المحتاج ويحتاج إلى أخرى، ما الشبكة فستخرج له كل يوم سمكة.

ويتمثل نموذج العون كما أراده منهجُ الله من القادر إلى غير القادر فيما كان من ذى القرنين مع أولئك القوم الذين وجدهم عند السّديْن، واكتشف حاجتهم إلى بناء سَدٍّ يقيهم شرَّ يأجوج ومأجوج، فقام بعمل الخير الذى شعر بمسئوليته الدينية عن القيام به ما دام يملك القدرةَ رافضاً أن يحصلَ على أجر لعمله.

يقول تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف]

والقصة لا تقف عند مسئولية القادر فى إعانة غير القادر، وإنما تمنحنا مَلْمَحاً آخر، ألاَ وهو إشراكُ المحتاج فى إعانة نفسه حتى لا يركن لرخاوة الكسل، وإنما يجب تفعيل طاقاته.

والأحداث يبدو منها أن ذا القرنين لم يكُنْ وحده، وإنما يصحب جيشاً عظيماً قادراً ملكَ به الأرض، وكان يمكنه أنْ يأمرَ جيشه ببناء السدِّ تماماً للخير الذى قدَّمه، وإنما سار الأمرُ على غير ذلك حيث أمر ذو القرنين القومَ أنْ يُعينوه بطاقتهم القادرين عليها، فهو أعانهم على تحقيق الأمن والحماية، وهم أعانوه على فعل الخير والحصول على الأجر، وأعانوا أنفسهم فى تحقيق الأمن لهم.

قال تعالى: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف]

الهدف الأول للعمل

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف]

كلُّ عمل يعمله العاقلُ لا بُدَّ أنْ يكونَ لهدف يقصده، لأن أىَ عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون، ليس لها هدفٌ.

فالعاقل قبل أنْ يفعلَ أىَّ عمل ينبغى أن يعرف الغايةَ منه وما الذى يُحققه من النفع؟ وهل هذا النفع هو الذى سوف يْحققه هو خير النفع وأدومه، أو هو أقلّ من ذلك؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يُحدد العاقل عمله.

والخير من الأعمال له جزاء، إنه جزاءُ الدنيا وجزاءُ الآخرة لأن نتائج الأعمال الخيرة تظهر فى ثمارها فى الدنيا فيحصل الإنسان على الثناء من الآخرين، ويحصل على القيمة المادية لعمله.

أما فى الآخرة فلا يحصل الإنسان على ما فعله من أعمال حتى ولو كانت خيِّرة إلا اذا كان قد عمله إيماناً بالله وتحقيقاً لأمره وبإعمار الأرض والجد، واستعمال نعَم الله من عقل ومَلَكات وكَوْن مُتسع.

هنا يُحقق المؤمنُ هدفين فى وقت واحد إرضاءَ الله وإسعاد البشرية، أما الذين عملوا لإسعاد البشرية ولم يَكُنْ اللهُ فى بالهم، أو لإسعاد فئة معينة أو لتحقيق مكسب معين أو شهرة، فأولئك لا يجوز لهم أن يطلبوا

جزاء على إنجازتهم إلا لمَنْ عملوا من أجلهم ولا من الله، وما دام الله لم يكُنْ فى عقولهم وقلوبهم وهم يُحققون منجزاتهم فلا يجوز لهم أن ينتظروا منه شيئاً.

ومن هنا كان قوله ﷺ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ)).

نظام محاسبة النفس

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف]

النفس البشرية لها أحوالٌ متعددة ومتباينة، إذا استطاع الإنسان أنْ يضبطَ هذه الأحوال دون تطرُّق فى بعضها كان فى حالة الوسطية التى وصف بها القرآنُ الأمة الإسلامية، فإذا أسرفتْ على نفسها فى جانب من جوانبها أضرّ هذا الجانبُ بالوسطية المطلوبة.

فإذا زاد هذا الإسراف فقد يدخل فى دائرة الضلال الذى يحمل صاحبه أوزار ما يفعل، وقد يتصوّر أنه يُحس الفعل أو الصنيع بإسرافه، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف]

فإذا تمادتْ النفسُ فى ضلالها وَسَعتْ إلى إضلال غيرها تحملتْ وزرها ووزر مَنْ أضلتْ، يقول تعالى فى شأن منْ كانوا يُنفّرون الناسَ من دعوة الرسول ﷺ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

ذلك أن النفسَ التى تمّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار فى مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال.

كذلك مَنْ سَنَّ سُنة سيئة بين الناس فإنه يحمل وزْرها ووزْر منْ عمل بها إلى يوم القيامة، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ، وكذلك مَنْ سنَّ سُنة حسنةً فله أجرُها وأجر منْ عمل بها إلى يوم القيامة.

ويدخل فى دائرة الضالين المُضلّين منْ يدّعى على الله ورسوله ما لم يَقُلْه اللهُ ورسوله مُؤكداً للناس أن ما يقوله من عند الله ورسوله ليشترىَ به ثمناً قليلاً.

يقول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة] وقد وصفهم الرسولُ بأنهم شرُّ الناس فى قوله ﷺ: ((شرّكم مَنْ باع دينه بدُنياه، وشَرٌّ منه مَنْ باعَ دينه بدُنيا غيره)).

والضلال أو الانحراف عن وسطية الدين فى جانب من جوانب الحياة لا تأتى مرّة واحدة، لأن الشيطانَ إذا جاء للإنسان ليُغريه بالكفر أو الضلال، فلا شكَّ أن المؤمنَ يرفض ذلك.

وإنما يأتى إليه ليهوّنَ عليه القليلَ من الانحراف، ثم القليل من الانحراف والضلال، حتى يجدَ نفسه خارجَ دائرة الإيمان تماماً عن الوسطية مُوغلاً فى مادية قاسية، ومن هنا كان الأمرُ بمحاسبة النفس أولاً بأول ومراجعتها حتى تعود إلى رُشْدها إن انحرفتْ قليلاً.

سورة مريم

سورة مريم

إنِّي عَبْدُ اللهِ

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم]

ونعجب للسيدة مريم، فبدلَ أنْ تخجلَ ممَّا حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس، أو تنتقل به إلى مكان آخر في فيافي الأرض إذا بها تحمله، وتذهب به، وتبادر به قومها، وما كانتْ لتفعلَ ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحُجَّة التي معها، والتي ستُوافيها على يد وليدها.

لذلك لما سأل بعضُ المستشرقين الإمام محمد عبده رحمه الله في باريس: بأيِّ وجه قابلتْ عائشةُ قومها بعد حديث الإفْكِ؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل، لكنهم يُردِّدونه كأنهم لا يفهمون.

فأجاب الشيخ رحمه الله ببساطة: بالوجه الذي قابلتْ به مريمُ قومَها وهي تحمل وليدها. أي: بوجه الواثق من البراءة، المُطمئِن إلى تأييد الله، وأنه سبحانه لن يُسْلِمها أبداً، لذلك لمَّا نزلتْ براءةُ

عائشةَ في كتاب الله قالوا لها: اشْكُري النبي، فقالت: بل أشكر الله الذي برّأني من فوق سبع سموات.

فلما رآها القومُ على هذه الحال قالوا فيها قولا غليظاً: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم] فرياً: الفَرْيُ للجلد: تقطيعه. والأمر الفَري: الذي يقطع معتاداً عند الناس فليس له مثيل، أو من الفِرْية وهو تعمُّد الكذب.

ثم قالوا لها: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم]، وهذا كلامٌ جارح وتقريع ومبالغة منهم في تعييرها، فنسبوها إلى هارون الذي سُمِّي على اسم النبي، فأنتِ من بيت صلاح ونشأتِ في طاعة الله، فكيف يصدر منك هذا الفعلْ؟

كما ترى أنتَ سيدةً محجبة يصدر منها في الشارع عملٌ لا يتناسب ومظهرها، فتلومها على هذا السلوك الذي لا يُتصوّر من مثلها.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ.. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] الرجل السوء هو الذي إنْ صحبْتَه أصابك منه سوءٌ، ونالك بالأذى ﴿ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم]

قُلْنَا: إن البَغيّ: هي المرأةُ التي تبغي الرجال وتدعوهم إليها. فالمراد: من أين لك هذه الصفة، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة؟

وفي هذا دليلٌ على أن نضْج الأُسَرِ يؤثر في الأبناء، فحين نُكوِّن الأسرة المؤمنة والبيت الملتزم بشرع الله، وحين نحتضن

الأبناء ونحوطهم بالعناية والرعاية، فسوف نستقبل جيلاً مؤمناً واعياً نافعاً لنفسه ولمجتمعه.

إذن: فقولهم: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] اتهام صريح لمريم، وتأكيدٌ على أنها وقعتْ في محظور، وكأنهم مُصرُّون على رَمْيها بالفاحشة.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم]

أي: حين قال القومُ ما قالوا أشارتْ إلى الوليد وهي واثقةٌ أنه سيتكلم، مُطمئنةً إلى أنها لا تحمل دليلَ الجريمة، بل دليل البراءة.

فلما أشارتْ إليه تقول لقومها: اسألوه. تعجَّبوا: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم]

ونلاحظ في قولهم أنهم لم يستبعدوا أنْ يتكلَّمَ الوليد، فلم يقولوا: كيف يتكلم مَنْ كان في المهد صبياً؟ بل قالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ.. ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم] أي: نحن، فاستبعدوا أنْ يُكلِّمُوه، فكأنهم يطعنون في أنفسهم وفي قدرتهم على فَهْم الوليد إنْ كلَّمهم.

والمهدُ: هو المكان المُمهَّد المُعَدّ لنوم الطفل، لأن الوليدَ لا يقدر أنْ يُبعدَ الأذى عن نفسه، فالكبير مثلاً يستطيع أنْ يُمهِّدَ لنفسه مكان نومه، وأنْ يُخرِجَ منه ما يُؤرِّق نومه وراحته، وعنده وَعْي، فإذا آلمَهُ شيءٌ في نومه يستطيع أنْ يتحلَّلَ من الحالة التي هو عليها، وينظر ماذا يُؤلمه.

ثم يقول الحق سبحانه أن عيسى عليه السلام قال وهو في مَهده: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم]. وكأنه قال للقوم: لا

تتكلموا أنتم، أنا الذي سأتكلم. ثم بادرهم بالكلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم] وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى، وفي هذه دليلٌ على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبداً، وأنه إلهٌ أو شريكٌ للإله.

لذلك كانت أو كلمة نطق بها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] فالمعجزة التي جاءتْ بي لا تمنع كَوْني عبداً لله ؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون في عيسى عليه السلام أنه إلهٌ أو شريكٌ للإله: إنكم تقولون أنه تَكلّم في المهد، فماذا قال؟ فلا يعترفون بقوله أبداً؛ لأن قوله ونُطْقه: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] ينفي معتقدهم من أساسه.

ليس هذا وفقط، بل: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] لكنْ كيف آتاه الكتابَ وهو ما يزال وليداً في مَهْده؟ قالوا: على اعتبار أنه أمرٌ مفروغٌ منه، وحادث لا شَكّ فيه، كأنه يقول: أنا أهْلٌ لأنْ أتحمّلَ أمانةَ السماء إلى أهل الأرض، مع أن الكتابَ لم يأتِ بَعْد، إلا أنه مُلقّن لقّنه ربّه الكتاب بالفعل، وإنْ لم يأتِ الوقتُ الذي يُبلِّغ فيه هذا الكتاب.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] فسُلُوكي سُلوكٌ قَويم، ولا يمكن أنْ يكونَ فيَّ مطعَنٌ بعد ذلك، وإنْ كان هناك مَطعنٌ فهو بعيد عني، ولا ذنبَ لي فيه.

النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالةُ لِكُلِّ فَرْدٍ

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم]

أمْرُ الزوجةِ بطاعة الله ضرورةٌ من مُقوِّمات الدين، ذلك لأن الزوجةَ عمادٌ من عُمد الأسرة التى قد تعتمد الأسرةُ فى تماسكها وبنائها وعدم انهيارها على قوتها.

فالزوج قد يُحقق للأسرة كفايةً مادية وأمْناً معنوياً، لكن الزوجةَ تستطيع أنْ تُشعَّ فى البيت روح التوادّ والتعاطف والتماسك والخلق القويم بين الأبناء، فينشأون بلا عُقَد أو مشاكل.

من هنا لم يكُنْ غريباً أن الله سبحانه وتعالى حين يمدح سيدنا إسماعيل عليه السلام يصفه بأنه يأمر أهله بالصلاة، حيث يقول تعالى:
﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم]

إن الله سبحانه وتعالى لا يهتم بخَصْلة ولا يذكرها إلا إذا كانتْ كبيرةً عنده تُساوى كَوْنه صادقَ الوعد، وكَوْنه رسولاً نبياً، فمَنْ أراد أنْ يتصفَ بصفة من صفات النبوة فعليه أنْ يأمرَ أهله بالصلاة والزكاة.

واختصاصُ الأهل بالصلاة اختصاصٌ للبيئة المباشرة التى إنْ صلُحَتْ للرجل صلُح له بيته وصلُحت له ذريته، وإذا كان الرجلُ يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة

فإنه بذلك يسُدُّ الطريقَ على الشيطان، فليس له مجالٌ فى بيت يُصلِّى أهلُه الخمسَ صلَوات.

لذلك فرسول الله ﷺ يقول: ((رَحم اللهُ امرءاً استيقظ من الليل فصلَى ركعتين، ثم أيقظ أهله فإنِ امتنعتْ نَضَحَ فى وجهها الماء، ورَحِمَ الله امرأةً قامتْ من الليل فصلَّتْ ركعتين، ثم أيقظتْ زوجها فإنِ امتنع نضحتْ فى وجهه الماءَ)).

إذن: فكُلُّ رجل وكُلُّ امرأة يستطيع فى كلِّ ليلة أنْ يكون رسولا لأهله ولبيئته، يقوم فيها بمهمة الرسول ﷺ فى التبليغ والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم]

قوله: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ.. ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم] أي: إقامة دائمة ؛ لأنك قد تجد في الدنيا جنات، وتجد أسبابَ النعيم، لكنه نعيمٌ زائل، إمّا أنْ تتركه أو يتركك. إذن: فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له.

وجناتُ عَدْن ليستْ هي مساكن أهل الجنة، بل هي بساتين عمومية يتمتع بها الجميع، بدليل أن الله تعالى عطف عليها في آية أخرى ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله: ﴿ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ.. ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم]

والوعْدُ: إخبارٌ بخير قبل أوانه ؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير. وضِدّه الوعيد: إخبارٌ بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المُتوعد، ويتفادى الوقوعَ في أسبابه.

واختيار اسم الرحمن هنا ليُطمئِنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي أن ربهم رحمن رحيم، إنْ تابوا إليه قَبلَهم، وإنْ وعدهم وعْداً وَفَّى. وقد وعدنا اللهُ تعالى في قرآنه، فآمنّا بوعده غيْباً ﴿ وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ.. ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم]

وحُجَّة الإيمان بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذي نراه الآن، فالكون الذي نشاهده قد خُلِق على هيئة مُهندسةٍ هندسةً لا يُوجد أبدعُ منها، فالذي خلق لنا هذا الكونَ العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم في الآخرة.

فلا بُدَّ أن نُصدِّق، ونأخذ من المُشَاهدَ لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً، ثقةً مِنَّا في قدرته تعالى التي رأينا طَرَفاً منها في الدنيا.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم] فما دام الرحمن تبارك وتعالى هو الذي وعد، فلا بُدَّ أن يكون وَعدُه (مَأْتِياً) أي: مُحققاً وواقعاً لا شَكَّ فيه، ووَعْده تعالى لا يتخلَّف، و(مَأْتِياً) أي: نأتيه نحن، فهي اسم مفعول.

وبعض العلماء يرى أن (مَأتِياً) بمعنى آتياً، فجاء باسم المفعول، وأراد اسم الفاعل، لكنَّ المعنى هنا واضحٌ لا يحتاج إلى هذا التأويل؛ لأن وعدَ الله تعالى مُحقَّق، والموعود به ثابتٌ في مكانه، والماهر هو الذي يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه.

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة في الجنة: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم]

اللغو: هو الكلام الفُضولي الذي لا فائدةَ منه، فهو يُضيع الوقتَ ويُهْدِر طاقةَ المُتكلم وطاقةَ المُستمع، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له.

والكلام هنا عن الآخرة ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا.. ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] فإنْ كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً في الدنيا فلا مجالَ للغو في الآخرة. ثم يُستثني من عدم السماع ﴿ إِلَّا سَلَٰمٗاۖ ﴾ والسلام ليس من اللغو، وهو تحيةُ أهل الجنة وتحيةُ الملائكة: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ.. ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس]

وقد يُرَادُ بالسلام السلامة من الآفات التي عَاينوها في الدنيا، وهم في الآخرة سَالمُون منها، فلا عاهةَ ولا مرضَ ولا كَدَّ ولا نصبَ. لكن نرجح هنا المعنى الأول أي: التحية لأن السلامَ في الآية مما يُسْمَع.

فإنْ قُلْتَ: فكيف يستثنى السلام من اللَّغْو؟ نقول: من أساليب اللغة: تأكيد المدح بما يشبه الذم، كأن نقول: لا عيبَ في فلان إلا أنه شجاعٌ، وكنت تنتظر أنْ نستثنيَ من العيب عَيْباً.

لكن المعنى هنا: إنْ عددتَ الشجاعةَ عيباً، ففي هذا الشخص عَيْبٌ، فقد نظرنا في هذا الشخص فلم نجد به عَيْباً، إلا إذا ارتكبنا مُحَالاً وعَددْنا الشجاعةَ عَيباً. وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم.

ومن ذلك قول الشاعر:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمِ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

يقول تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم]

لم يقُل الحقُّ سبحانه وتعالى: وعلينا رزقهم، بل: ولهم زرقهم. أي: أنه أمر قد تقرّر له وخُصِّص لهم، فهو أمرٌ مفروغٌ منه. والرزق: كلُّ ما يُنتفع به، وهو في الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير في الدنيا.

ومن رحمة الله تعالى بعباده من أهل الجنة أنْ نزعَ ما في صدورهم من غِلٍّ ومن حسد ومن حقد، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه، ولا يشتهي من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته، فإنْ رأى مَنْ هو أفضلُ منه درجةً لا يجد في نفسه غِلاً منه، أو حِقْداً عليه ؛ لأن مُوجبَ الغِلِّ في الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضلُ منك.

أما في الآخرة فسوف ترى هذه المسألةَ بمنظار آخر، منظار النفس الصافية التي لا تعرف الغلَّ، قال تعالى: ﴿ مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر]

فإنْ رأيتَ مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول: إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم، فقد كان يجاهد نفسه وهواه في الدنيا. ويكفي في وَصْف ما في الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [الزخرف].

وقول النبي ﷺ: ((فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر)).

إذن: ففي الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا ؛ لذلك ليس في لغتنا ألفاظٌ تُعبِّر عن هذا النعيم؛ لأنك تضع في اللغة اللفظ الذي أدركت معناه، وفي الجنة أشياء لا تدركها ولا عِلْمَ لك بها.

لذلك حينما يريد الحق تبارك وتعالى أن يصِفَ لنا نعيم الجنة بصفة بما نعرف من نعيم الدنيا: نخل وفاكهة ورُمَّان ولحم طيرٍ وريحان.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

مع الفارق بين هذه الأشياء في الدنيا والآخرة. ويكفي أنْ تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سُوء في طَعمها ورائحتها واغتيالها للعقل، وبين خمر الآخرة التي نفى اللهُ عنها السوء، فقال: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الصافات]

وقوله: ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرةً وعشيا، وليس في الجنة وقتٌ لا بُكْرةً ولا عَشياً، لا لَيْل ولا نهار؟

نقول: إن الحق تبارك وتعالى يُخاطبنا على قَدْر عقولنا، وما نعرف نحن من مقاييس في الدنيا، وإلاّ فنعيمُ الجنة دائمٌ لا يرتبط بوقت، كما قال سبحانه: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ.. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد]

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم]

قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ﴾ [مريم] أي: التي يعطينا صُوراً لها هي: ﴿ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم] أي: يرثونها، فهل كان في الجنة أحدٌ قبل هؤلاء، فهُم يرثونه؟

الحق تبارك وتعالى قبل أنْ يخلقَ الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره، ومَنْ سيكفر باختياره، علم مَنْ سيطيع ومَنْ سيعصي، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شيء، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى.

إلا أنه تعالى أعدَّ الجنةَ لتسعَ جميع الخَلْق إنْ أطاعوا، وأعدَّ النارَ لتسعَ جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا، فلن يكون هناك إذن زحامٌ ولا أزمةُ إسكان، إنْ دخل الناسُ جميعاً الجنةَ، أو دخلوا جميعاً النار.

إذن: حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ، أين تذهب أماكنهم التي أُعِدَّتْ لهم في الجنة؟ تذهب إلى أهل الجنة، فيرثُونها بعد أنْ حُرِمَ منها هؤلاء.

سورة طه

سورة طه

عندمَا يَخرُجُ الكِبْرُ منَ القلْب

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه]

إذا خرج العنادُ والاستكبارُ من قلب إنسان أصبح مُهيأً تماماً لدخول الحقِّ والنور، لأن العنادَ والاستكبار يجعل الأغلاقَ على القلب التى تمنع النور من الوصول إليه، ويخلق على العيون عمىً لا ترى منه الخير.

ولو تأمَّلنا فى قصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ لأدركنا ذلك تماماً، فقد ذهب ليبطشَ بأُخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد، لأنه علم بأنهما أسلمَا، فلمَّا تدخَّلتْ أخته فاطمة لحماية زوجها سعيد الذى حاول أخوها عمر البطشَ به ضربها عمر فأسالَ الدمَ منها.

وعندما رأى عمرُ الدَّمَ يسيل من وجه أخته رَقَّ قلبُه، وانفعل قلبُهُ بالرحمة بدلاً ممَّا كان فيه من انفعالٍ بالأذى، فخرج العنادُ من قلبه وملأه الصفاءُ، فطلب من أخته صحيفةَ القرآن التى كَانَا يَقْرآن منها.

وقرأ من أول سورة (طه)، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه، ثم أسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه.

ولم تَكُنْ هذه المرة هي الأولى التى يستمع عمرُ فيها إلى القرآن، فقد استمع إليه قبل ذلك ولم يسلم، أما فى هذه المرَّة فقد

صادف الإيمانُ قلباً يعيش لحظاتٍ من الرحمة والرِّفْق بالأخت التى نزفَ وجهُهَا من قسوة أخيها.

لذلك كان الكفارُ يحرصون على إهاجة مشاعر الكفر فى القلوب حتى لا يدخلها القرآنُ، وكان الكفارُ يسترقون سماعَ القرآن من وراء بعضهم البعض، وكانوا يقولون: إنّ له لَحلاوةً، وإنّ عليه لَطلاوةً، وإن أعلاه لَمُثمِر، وإن أسفله لَمُغدِقٌ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه.

لكن عنادهم واستكبارهم كَانَا يمنعانهم من تقبُّل الهدى والنور والحلاوة والطلاوة التى يعترفون بها.

السحر تخييل فقط

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

السحر لونٌ من التخيُّل، والساحر أثناءه يظل يرى الشيءَ على حقيقته، لذلك فإنه لا يخاف، بينما المسحورون يتخيلون أن الشيءَ قد تغيَّرتْ طبيعته، لذلك سجدَ السَّحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحراً، ولكنها شيءٌ فوق طاقة البشر.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

إذن: السحر تخيُّل، والشياطين لهم قدرةٌ على التشكُّل بأيِّ صورة من الصور، ولا يستطيع الإنسانُ أنْ يدركَ الشيطانَ على صورته الحقيقية، ولكنه إذا تشكَّل يستطيع أنْ يراه فى صورة مادية.

فإذا تشكَّل فى صورة إنسان رأيناه إنساناً، وإذا تشكَّل فى صورة حيوان رأيناه حيواناً، فإذا دَهمتْه سيارةٌ مثلاً مات، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها، وهذا هو الشرّ فى أنه لا يبقى فى تشكُّله إلا لمحةً ثم يختفى فى ثَوان، لأنه يخشى ممَّنْ يراه فى هذه الصورة أنْ يقتله خصوصاً أن قانون التشكُّل يحكمه.

ولذلك فإن رسول الله ﷺ حين تشكَّل له الشيطانُ فى صورة إنسان قال: ((لقد هممتُ أنْ أربطه فى سارية المسجد ليتفرَّج عليه صبيانُ المدينة، ولكن تذكَّرتُ قول أخى سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص] فتركتُه)).

ولا شكَّ أنه من رحمة الله بنا أن الصورةَ التى يتشكَّل بها الشيطان تحكمه، وإلاَّ لأفزعوا الناسَ فى حياتهم.

الإنسانُ الكافرُ يُرهقُ نفسَه

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه]

الذين لا ينظرون إلى الأمور من كافة جوانبها وأبعادها، وخاصة من الذين لا يؤمنون بالله يتساءلون: ما دام الله لا حاجةَ له بعقابنا ولا بإيماننا أو كفرنا، كما يقول الرسل والمؤمنون، فَلِمَ يُعذِّبنا؟

ولا يدرك هؤلاء أن الله عندما يُعاقبهم بكفرهم لا يعاقبهم لأنهم لم يؤمنوا برسله فقط، لأن دينَ الله سينتصر، سواءٌ آمن الناسُ به أو لم يؤمنوا، ولكن سلوكَ الكافرين يفسد في الكون الذي خلقه اللهُ بنواميسَ معينة، ووضع المنهجَ الذي يصلح به، لأنه الصانعُ الذي يعرف طبيعة ما صنع.

كذلك نجد المَوْلى سبحانه وتعالى يُنبِّه إلى تلك الحقيقة مخاطبا رسوله الكريم قائلاً: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات]

ذلك لأن الإيمانَ واتباع منهج الإيمان يُصلحُ الكوْن، ويُصلحُ حياةَ المؤمن ويُيسِّرها له، أما المُعرض الكافر فإنه يتخبَّط في تجارب لمناهج تختلف عن المنهج السماوي السليم، فتدفعه إلى مزيد من التخبُّط، وهو ما أشار الله إليه في قوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه]

لذا فإن الداخل في الإسلام يعلم أنه لن يزيد دخوله في دين الله من مُلْك الله شيئاً، وإنما يحمد الله لأنه مَنَّ عليه بالهداية التي تُصلح له من دُنْياه وآخرته، أما الذي أَبَى وضلَّ فإنه قد حكم على نفسه بالرَّهَق والتعب والنَّصَب في الدنيا والآخرة، بالإضافة إلى أنه يساهم في إفساد صنعة الله وهي الكون.

فى حين أن الله سبحانه وتعالى سينصر دينه، سواء آمن مَنْ آمن أو كفر مَنْ كفر، ويلفتنا القرآنُ إلى هذه الحقيقة فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال] وهو طمأنةٌ لنبيه وإزاحةٌ للحزن عن قلبه الذى يتمنى أنْ يؤمن الناسُ جميعاً.

انسجام الجسم.. مع الإيمان وغيره

شاءتْ إرادةُ الله سبحانه وتعالى أنْ يكون كونُه منسجماً فيما بينه فى كلِّ حركاته وسَكَناته وفى تسبيحه لخالقه.

ولأن الإنسان خُلِقَ مختاراً فقد كان المطلوبُ منه أنْ يضبطَ حركته فى كوْن الله على منهج الله، خاصةً وأن أعضاء الإنسان المجبولة على الفعل والتى لا دخلَ للإنسان بعملها وفعلها، تسير وفْقَ منهج الله مُنسجمة مع كوْنه مُسبِّحة مُحمدة. أى: أن ذرات الجسد الإنسانى تُسبِّح بحمد الله كبقية مخلوقات الكون.

ومن هنا فإن الإنسان إذا ضبط حركته مع حركة الكون العابد المُسبِّح حقَّق الرضا والسعادة والطمأنينة فى الحياة، ولم يشعر بالمِشقَّة والنَّصَب فى كلِّ تحركاته لأن ذرات جسمه تجاوبتْ مع إرادته الإيمانية ويظهر ذلك جلياً فى ظاهرة النوم.

فالمؤمن ذرَّاته وأعضاؤه راضيةٌ عنه تحبه وتحب البقاءَ معه لا تفارقه، لأن إرادته فى طاعة الله فلا ينام كثيراً، وبمجرد أنْ تغفل عينه

سورة الأنبياء

سُورَةُ الأنْبيَاءِ

اقتراب الحساب

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

[الأنبياء]

والاقتراب: إما أن يكون زمناً أو مكاناً، فإذا كانت المسألةُ في مسافات قلنا: اقترب للناس حسابُهم يعني مكانه. وإذا كانت للزمن قلْنا: اقترب زمنه. فالاقتراب: دُنو الحدث من ظرفية زماناً أو مكاناً.

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضي ﴿ ٱقْتَرَبَ ﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمرٌ لازمٌ وسيحدث ولا بُدَّ، والبشرُ حينما يتحدَّثون عن أمر مُقبل يقولون: يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدث فعلاً لا يقولها إلا اللهُ الذي يملكُ الأحداثَ ويقدر عليها.

أما الإنسانُ فلا يملك الأحداث، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أنْ يتلفَّظ بهذا اللفظ.

ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

فلا يُقال لك: لا تستعجلْ شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد، فكيف إذن جمع بين الماضي ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ والمستقبل ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

قالوا: أنت ممنوعٌ أنْ تحكمَ بمُضيٍّ على أمر مستقبل؛ لأنك لا تملك نفسك، ولا تملك ظروفَ المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ

لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة؛ لأن قولك: سأفعل ذلك غدا· قضيةٌ يدعوك للفعل والقدرة التي تُعينك أنْ تفعل·

وهذه كلُّها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها، وربما جاء غدٌ فتغيَّر عنصرٌ من هذه العناصر، وحالَ بينك وبين ما تريد، فينبغي أنْ تُبرِّيء نفسك من احتمال الكذب، فتقول: إنْ شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذي يملك كل هذه العناصر، وكأنَّ ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً·

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم، ووضعتْ له الزمن المناسب، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضي: حضر فلان. انتهت القضية، فإنْ علمتَ أنه توجَّه للحضور واستعدَ له قُلْ: سيحضر فلانٌ أي قريباً، أو سوف يحضر· أي: بعد ذلك·

هذا الذي يناسب قدرة البشر، أما الحق سبحانه فيملك زمامَ الأشياء وتوجيهها، وكلّ شيء مرهونٌ بأمره التكويني، فإنْ قال للأمر المستقبل: أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شيء يُخرج الأمر عن مراده تعالى، وهو وحده الذي يملك الانفعال لكلمة كُنْ، فإنْ قالها فقد انتهتْ المسألة·

لذلك يقول سبحانه: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضي ولم يقل: يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله·

وقد ورد الماضي (اقترب) أيضاً في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر]

وفي قوله تعالى: ﴿ كَلا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب، قرُب: يعني دنا، أما اقترب أي: دنا جداً حتى صار قريباً منك.

والحساب: كلمة تُطلَق إطلاقات عِدّة، فالحساب أنْ تحسب الشيء بالأعداد جمعاً، أو طرْحاً، أو ضَرْباً، وتُدير حصيلةً لك أو عليك، فإنْ كانت لك فأنت دائنٌ، وإنْ كانت عليك فأنت مَدينٌ، أو تربط المُسبَّبات بأسبابها.

وهناك أمورٌ تأتي بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها، والله لا يُسأل: أعطاني زيادةً أم نقصاناً.

أما الحساب في ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء] فيقتضي مُحَاسِباً هو الله عزَّ وجلَّ، ومُحاسَباً هم الناس، ومُحَاسَباً عليه وهي الأعمال والأحداث التي أحدثوها في دنياهم، وهذه قسمان: قسم قبل أنْ يُكلَّفوا، وقسم بعد أنْ كُلِّفوا.

ما كان قبل التكليف وسِنِّ البلوغ لا يُحاسبنا الله عليه، إنما تركنا نمرح ونرتع في نِعَمه سبحانه دون أنْ نُسأل عن شيء، أما بعد البلوغ فقد كلّفنا بأشياء تعود علينا بالخير، وألزمنا المنهجَ الذي يضمن سعادتنا بـ (افعل) و (لا تفعل)، وهذا يقتضي أنْ نحاسب، فعلنا، أم لم نفعل.

إذن: المسألة حساب، ليست جُزَافاً، جماعة في الجنة وجماعة في النار، وقوله سبحانه في الحديث القدسي: ((هؤلاء في الجنة ولا أبالي،

وهؤلاء في النار ولا أبالي)) بِناءً على علْمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب، ففي علم الله ما فعلوا وما تركوا.

ولا تنْسَ أن المُحاسب في هذا الموقف هو الله، فإنْ كان الحساب في الخير عاملكَ بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات، وإنْ كان الحسابُ في الشر كان على قَدْره دون زيادة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ]

وما دام المُحاسب هو الله سبحانه وتعالى، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك، ولم يأخذنا على غَفْلة، ولم يُفاجئنا بالحساب على غِرّة، إنما أبان لنا التكاليفَ، وأوضح الحلال والحرام، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدّ له، فلا نسير في الحياة على هَوانا.

فقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

فمن رحمته تعالى بعابده أنْ وعدهم هذا الوعد، وعرَّفهم هذا الميزان وهُم في سَعَة الدنيا، وإمكان تدارك الأخطاء، واستئناف التوبة والعمل الصالح، من رحمته بنا أنْ يعظنا هذه الموعظة ويُكرِّرها على أسماعنا ليلَ نهارَ.

إذن: ما أخذنا ربُّنا على غِرَّة، ولم تُفاجئنا القيامةُ بأهوالها، فمن الآن اعلم ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ.. ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء] وما دام الأمرُ كذلك فَعلى الإنسان أن يُقدِّر قَدْر الاقتراب، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب.

ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله، إنما عُمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها، وهو مُكْثٌ مظنونٌ غير مُتيقَن، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً، ومنهم مَنْ مات في بطن أمه.

إذن: لا تُؤجِّل لأنك لا تدري، أيُمهلك الأجل حتى تتوب؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك؟

والحق سبحانه يقول: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ.. ۝١ ﴾ [الأنبياء]

مع أن الساعة ما زالتْ بعيدة، وبيننا وبين القيامة ما لا يعلمه إلا الله.. فكيف ذلك؟

قالوا: لأن الحسابَ إنما يكون على الأعمال، والأعمالُ لها وقتٌ هو الدنيا، فمنْ مات فقد انقطع عمله، واقترب وقتُ حسابه؛ لأن المُدة التي يقضيها في القبر لا يشعر بها، فكأنها ساعةٌ من نهار.

فإنْ قُلْتَ: من الناس مَنْ يعيش مائةَ عام، ومائةً وخمسين عاما. نقول: هذا شيءٌ ظنيّ لا نضمنه، والإنسانُ عُرْضَةٌ للموت في أيٍّ لحظة لسبب أو دون سبب.

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ.. ۝١ ﴾ [الأنبياء] فقال: (للنَّاسِ) مع أن الحسابَ لهم وعليهم، فهل معنى (للناس) أي لمصلحتهم؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ [الأنبياء]

إذن: الحساب ليس في مصلحتهم إنما الحساب عليهم. إذن: كيف يكون مثل هذا السياق ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ.. ۝١ ﴾ [الأنبياء] ما دام الأمرُ على الكفار؟ كان المفروض أنْ يقولَ: اقترب على الناس حسابهم.

نقول: هذا إذا أخذتَ اللام للحساب، إنما اللام هنا للاقتراب، لا للحساب. أي: اقتربَ من الناس، إنما الحسابُ لهم أو عليهم، هذه مسألةٌ أخرى.

وقوله: ﴿ وَهُم فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها: زحزحة الشيء عن بال مَنْ الواجب ألاّ يزحزح عنه، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أنْ تهمل مسألة كان يجب ألاّ تُهمل، وألاّ تغيب عن بالك، أما النسيانُ فخارجٌ عن إرادتك.

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين، وهو الإيمان بالألوهية، فإن آمنت بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التي جاء بها الدين، وهذه هي المعاصي.

والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربّ الأعلى مثلها الغفلةُ عن حُكْم الرب الأعلى، وفَرْق بين غَفْلَة وغَفْلَة.

وقد حدَّثَ النبي ﷺ صحابته عن هذه الغفلة، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال: حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيتُ أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدَّثنا ((أن الأمانة نزلتْ في جِذَرْ قلوب الرجال)).

والأمانةُ هي الإيمانُ الحق بالله. أي: حَلَّ الإيمان، واستقرَّ في القلب، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآنُ، فعلموا من القرآن، وعلموا من السُّنة).

ثم حدّثنا عن رَفْع الأمانة فقال: ((ينام الرجلُ النَّوْمةَ، فتُقبض الأمانةُ من قلبه)) أي: يغفل ((فيظل أثرُها مثل أثر الوَكْت)) الوَكْت: مثل سيجارة مثلاً تقع على الجلد فَلسعتْه، فيتغيَّر لونه.

((ثم ينام النومة)) أي مرة أخرى ((فتُقبض الأمانةُ من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل)) والمجل: جمرة النار ((فنفط فتراه مُنتبراً عالياً، وليس به

شيء)) أي: انتفخ (فيصبح الناس)) أي: بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحدٌ منهم يؤدي الأمانة، حتى يُقال: إن في بني فلان رجلا أمينا)) لنُدرة الأمانةِ بين الناس.

ثم يقول الراوي: ((وقد مرَّ عليَّ زمانٌ ما كنتُ أبالي أيكُم بايعتُ، فلئن كان مُسلماً ليردنَّه عليَّ دينه)) يعني: إنْ غشَّني في شيء أو حدث خطأ ما في البيع ((ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه عليَّ ساعيه)).

أي: الناس المُكلَّفون بمراقبة الأسواق، وهم أهل الحِسْبة، فإنْ رأوْا غِشّاً منعوه، وردُّوا إلى صاحب الحق حقَّه ((وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)) فإنْ كان هذا في أيامهم، فما بال أيامنا؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: ((الناسُ كإبل مائة لا تجد فيها راحلةً)) أي: رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك.

وفي رواية أخرى: ((تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً)) أي: كنسج الحصير، عُوداً بعد عُود، حتى تتم الحصيرة، ثم يكون الرَّان على القلب.

فغفْلةُ هؤلاء غَفْلةٌ عن القمة، وعن الألوهية، لا عن التكاليف؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمُكلِّف سبحانه.

سورة الحج

سورة الحج

هنا يُحاسب الحاج على مجرد الإرادة

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج]

للحج آدابٌ مُعينة يلتزم بها الإنسانُ في فعله وتصرفاته وهيئته، وهو فرض من الله على الإنسان أنْ يُؤديه مرةً في عمره عند الاستطاعة، ويصير فرضاً من الإنسان على نفسه عندما يُقرر وينوى الحج في زمن معين.

لذلك جاء قوله تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ .. ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة] والرّفث للسان وللعين، وللجوارح الأخرى رَفث، وكلها تلتقى فى عملية الجماع ومقدماته.

ورَفث اللسان فى الحج أن يذكر مسألة الجماع، ورَفث العين أنْ ينظر إلى المرأة بشهوة، فالرّفث كل ما يتأتى مقدمة للجماع أو هو الجماع أو ما يتصل به الكلمة أو بالنظرة أو بالفعل.

والرّفث وإنْ أُبيح فى غير الحج فهو مُحرَّم فى الحج، أما الفسوق فهو محرم فى الحج وفى غير الحج، فكأنَّ الله ينبه إلى أنه وإنْ جاز أن يحدث من المسلم فسوقٌ فى غير الحج فليس من الأدب أنْ يكون المسلمْ فى بيت الله ويحدث ذلك الفسوقُ منه.

الله سبحانه هنا يُنبه المسرف على نفسه، وعليه إنْ كان يتذكر إنْ كان قد فسق بعيداً عن بيت الله فَلْيستح أنْ يعصى الله فى بيت الله، لان الذاهب إلى بيت الله يبغى تكفير الذنوب عن نفسه، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنوباً، لا بدَّ أن يستحى المسلم وهو فى بيت الله، وليعلم أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذى يُحاسب فيه على مجرد الإرادة، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

[الحج]

إذن: الرَّفث حلال فى مواضع، لكنه يحرُم فى البيت الحرام. لكن الفسوقَ ممتنعٌ فى كل وقت، وامتناعه أشدّ فى البيت الحرام.

أما الجدال وإنْ كان مباحاً فى غير الحج فلا يصح أنْ يوجد فى الحج، ولنا أن نعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق ودون مرتبة

العصيان، وقد قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: ((مَن حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسق رجعَ كيوم ولدته أمه)).

ولم يَقُل: لم يجادل، لأن بشرية الرسول تراعى ظروف المسلمين، فمن المحتمل أنْ يصدر جدالٌ من الحج نتيجةَ فعل استثارة، فكأنَّ عدم ذكر الجدال فى الحديث فُسحة للمؤمن، ولكن لا يصح أنْ يتمادى فيها الإنسان، كما أن الجدال ممكن فى غير الحج، لقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ.. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

تَقْوَى الْقُلُوبِ

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج]

﴿ ذَٰلِكَ.. ﴾ إشارة إلى الكلام السابق الذي أصبح واضحاً معروفا، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تَنبَّه له.

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ.. ﴾ الشعائر: جمع شعيرة، وهي المعالم التي جعلها اللهُ لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها، فالإحرام شعيرة، والتكبير شعيرة، والطواف شعيرة، والسَّعْي شعيرة، ورمْيُ الجمَار شعيرة.. الخ. وهذه أمور عظّمها الله، وأمرنا بتعظيمها.

وتعظيمُ الشيء أبلغُ وأشملُ من فِعْله، أو أدائه، أو عمله. عظَّم الشعائر يعني: أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص، وجاء بها على الوجه الأكمل، وربما زاد على ما طُلِبَ منه.

ومثالنا في ذلك: خليل الله إبراهيم، عندما أمره اللهُ أنْ يرفع قواعد البيت: كان يكفيه أنْ يبني على قَدْر ما تطوله يده، وبذلك يكون قد أدّى ما أُمِر به، لكنه عشقَ هذا التكليف وأحبّه فاحتال للأمر ووضع حجرا على حجر ليقف عليه، ويرفع البناء بقدر ما ارتفعَ إليه.

فمحبةُ أمر الله مَرْقى من مراقي الإيمان، يجب أنْ نسمو إليه، حتى في العمل الدنيوي: هَبْ أنك نُقِلْتَ إلى ديوان جديد، ووصل إلى عِلْمك أن مدير هذا الديوان رجلٌ جادّ وصعب، ويُحاسب على كل صغيرة وكبيرة، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمي، فإذا بك تلتزم بهذه

التعليمات حرفياً، بل وتزيد عليها ليس حباً في العمل، ولكن حتى لا تُسأل أمام هذا المدير في يوم من الأيام.

إذن: الهدف أنْ نؤديَ التكاليف بحُبٍّ وعِشْق يُوصِّلنا إلى حُبِّ الله عزّ وجلّ ؛ لذلك نجد من أهل المعرفة مَنْ يقول: رُبَّ معصية أورثتْ ذُلا وانكساراً خَيْرٌ من طاعة أورثتْ عِزاً واستكباراً.

فالمهم أنْ نصلَ إلى الله، أن نخضع لله، أنْ نذِلَّ لعزَّته وجلاله، والمعصية التي تُوصِّلك إلى هذه الغاية خيرٌ من الطاعة التي تُسلمك للغرور والاستكبار.

هذه المحبة للتكاليف، وهذا العشقُ عبَّر عنه رسول الله ﷺ، حينما قال: ((وجُعلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة))، لذلك نَعى القرآنُ الكريم على أولئك الذين ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]

وابنته فاطمة -رضي الله عنها- كانت تجلو الدرهم وتُلمّعه، فلما سألها رسولُ الله ﷺ عما تفعل، قالت: لأنني نويتُ أنْ أتصدَّق به، وأعلم

أنه يقع في يد الله قبل أنْ يقع في يد الفقير. هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحُبٍّ.

وفي عصور الإسلام الأولى كان الناسُ يتفاضلون بأسبقهم إلى صلاة الجماعة حين يسمع النداء، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة، ولك أنْ تقيسَ حالَ هؤلاء بحالنا اليوم، هؤلاء قومٌ عظّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئاً.

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال: لقد أصبحتُ أخشى ألاَّ يُثيبني اللهُ على طاعته، فسألوه: ولماذا؟ قال: لأنني أصبحتُ أشتهيها. يعني: أصبحتْ شهوة عندي، فكيف يُثاب -يعني- على شهوة عندي؟!

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرّحْب والسّعَة دون جدال ولا مناقشة، وكيف يُناقشون أمرَ الله وهم يُعظّمونه؟

ومن هنا نقول للذين يناقشون في أمور فعلها رسول الله ﷺ مثل تعدّد زوجاته مثلاً ويعترضون، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق.

نقول لهم: ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسولُ الله، فكيف تضعون له موازينَ الكمال من عند أنفسكم. وتقولون: كان ينبغي أنْ يفعل كذا، ولا يفعل كذا؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله؟ المفروض أن الكمالَ منه ﷺ ومن ناحيته، لا من ناحيتكم.

ثم يقول سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝ ﴾ [الحج] ليست من تقوى الجوارح، بل تقوى قلب لا تقوى قالب، فالقلب هو محلٌّ نظر الله إليك، ومحلٌّ قياس تعظيمك لشعائر الله.

وسبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا، إنما يريد أنْ يُخضع قلوبنا، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمةً، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾ [الشعراء]

وأنت تستطيع أنْ تُرغِم مَنْ هو أضعف منك على أيِّ شيء يكرهه، إنْ شئتَ سجد لك، لكن لا تملك أنْ تجعلَ في قلبه حُباً أو احتراماً لك، لماذا؟ لأنك تُجبر القالب، أمّا القلبُ فلا سلطةَ لك عليه بحال.

سورة المؤمنون

سورة المؤمنون

منهجٌ.. بلا أهواء

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ.

(٧١) ﴾ [المؤمنون]

لا بُدَّ أن تُبنى حركةُ الحياة على قضايا ثابتة، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرك فى أىِّ حركة واثقاً من أن حركته ستؤدى إلى النتيجة المطلوبة.

وقضايا الحياة تنقسم إلى قسمين هما: قضايا تختلف فيها الأهواء، وقضايا تتفق فيها الأهواء.

أما القضايا التى تتفق فيها الأهواء فهى كل ما يخضع للتجربة المعملية التى لا يستطيع أنْ يختلفَ فى نتائجها شخصٌ عن الآخر وإن اختلف وطنه أو جنسيته أو لونُه أو ثقافته إلى آخر ما بين البشر من اختلافات.

والقضايا التى تختلف فيها الأهواء هى القضايا التى يحرص فيها كلُّ متناول لها على أنْ يثبت ما يعتقده هو ويُقره الناسُ أنه الصواب، ولو

كانت مُضرة بغيره، ولو كان يعرف آثارها السلبية إلا أنه يريد لها أن تكونَ هى الصحيحةَ تبعاً لهواه.

وما دام الأمرُ قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أن تختلف لأن لكل واحد هواه الخاص، ولو أن كل واحد تشبَّث بهواه ما التقى الناس فى قضية على رأى. وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون]

إذن: فلا بدَّ من أنْ يخرج كلُّ واحد من هَوى نفسه أولاً، ثم ترد المشكلة أو القضية التى تتضارب فيها الأهواء إلى مَنْ لا هوى له ليكون الحكمُ خالصاً.

والله سبحانه وتعالى وحده الذى لا هوى له إلا صلاح البشر، ونحن جميعاً خَلْقه وكلُّنا عنده سواء، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسبٌ أو قرابةٌ، ونترُكْ قضايا الأهواء له بما أنزل من منهج للتعامل معها يُريح الجميع من أنْ يتسلطَ البعضُ على البعض، أو أنْ تسودَ المناهج الفاسدة التى لا تنتهى بالمجتمع إلا إلى الشقاء والضَّنْك والفساد.

أما بمنهج الله فإن المجتمعَ يسعد ويُحقق خلافةَ الله فى الأرض كما أرادها الله.

تشريع.. بلا أهواء

الدين جاء من أجل تنظيم الأمور التى تختلف فيها الأهواء لحَسْم النزاع بين الأهواء، ولذلك شرع الله سبحانه لنا تشريعاً تلتقى فيه أهواؤنا، ولذلك يقول الرسول ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به)).

أي: أنْ تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحدة، لأن كل إنسان إن انفرد بهواه لا بُدَّ أن يصطدم بأهواء الآخرين، فالخلافات البشرية سواء كانتْ على مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم جاءتْ مع اختلافات الأهواء.

ولكن الأشياء التى لا دَخْلَ للأهواء فيها فالعالم مُتفق فيها تماماً، فليس هناك كهرباء روسى أو كهرباء أمريكانى، ولا توجد كيمياء روسى، ولا كيمياء أمريكانى، فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاقٌ، والخلاف فقط فيما تختلف وتصطدم فيه الأهواء.

فكأنَّ الله ترك لنا ما فى الأرض لنتفاعلَ معه بعقولنا المخلوقة له، وطاقاتنا وجوارحنا المخلوقة له لأن التجربة المعملية المادية لن تفرق، أما الضرر فسوف يكون مما فيه تتدخَّل الأهواء.

ولقد أعطانا الله هذه الأمور كى تستقيم الحياة، ولا تستقيم الحيـاة إلا إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاسم قضايا الهوى، ومن هنا تـدخلت السماء فى مسألة الأهواء بالمنهج: افعل هذا، ولا تفعل هذا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون] ويقـول أيضـاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء]

وهذا القول يدل على أن النـور هنـا هـو القـرآن، وجمـع بـين أمرين برهان أى معجزة، ونور ينير لنا سبيلنا.

ويقـول تعـالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن] والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية (الله) هو قوة الإيمان ورسوله هو المُبلِّغ عن الله لأنه جاء لنا بـالنور، والقـران منهج نظامى، وسنة الرسول منهج تطبيقى.

سورة النور

سورة النور

لغات الحشرات والطير

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

التسبيح هو التنزيه، والتنزيه ثابتٌ لله تعالى قبل أنْ يُوجد مَنْ يُنزّهه من خَلْقه، فهو مُنزَّهٌ بذاته، والصفة كائنةٌ له قبل أنْ يخلق.

فالتسبيحُ هو حيثية الإيمان، فلا يكون إيمانٌ إلا إذا كان يقيناً بما يؤمن الإنسانُ به وثقة بقدرته وعُلوّه وفوْقيته عمَّا سواه.

فإذا آمن الإسلامُ بإله واحد فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المُؤلّهين جميعاً، وليس لأحد شبَه به وإن اشترك معه فى مُطلق الصفات، فالله غنيٌّ لكن غنى الله ذاتيٌّ، وغنَى الآخرين موهوبٌ، ويمكن أنْ يُسلبَ منهم فى أىِّ وقت.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] ويقول: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

إذن: فكلُّ شيء فى الوجود علم كيف يصلى لله، وكيف يُسبِّح لله، وفى القرآن آياتٌ تدلُّ بمقالها ورمزيتها على أن كلَّ عالم فى الوجود له لغةٌ يتفاهم بها فى ذاته، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهمَ عن الجنس الأدنى لغته، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها؟

بدليل أن الناس التى تتكلم كثيراً ما يعجز البعضُ عن فَهْم لغة آخرين ما دام لم يتعلَّمها، ولا يعنى عدم فَهْمه أن الآخرَ لا يتكلم، وإنما يعنى أنه لا يعرف لغته، كذلك الكائنات لها كلامها وحوارها إلا أنها تختلف عن بعضها البعض فى لغتها.

كما أن اللغة ليستْ اللسان فقط، بل هى استعدادٌ لاصطلاح يتعارف عليه المتحاورون، ولا شكَّ أن ما ساقه القرآنُ من حوار بين نملة وأخواتها، وبين سليمان والهدهد دليلٌ كَافٍ لهذه اللغة، وهذا النسيج لخالق الكون.

سورة الفرقان

الإسراف مذموم.. حتى فى العبادة

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

التبذير هو الإسراف، وهو أيضاً صَرْفُ المال فى غير محله، أو فى غير حاجة أو ضرورة.

وقد نهى الإسلام عن التبذير فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] وفى قوله: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

ويخطيء مَنْ يظن الإسراف الذى نهى عنه القرآن المقصود به الإسراف المالى دون أنْ يتصورَّ أنه الإسراف فى كل شيء، وهو خطأ شائع لدى الناس.

لقد جاء الإسلام بوسطية تُحقق التوازن فى الحياة للمسلم بين ما هو مادى وما هو روحى، وهو ما أشار إليه القرآن فى قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ.. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

ذلك لأن الوسطية تحقق اعتدالاً لا يدفع الإنسان إلى الخلل أو الهلاك، لأن الإسرافَ فى الماديات يصل بالإنسان إلى حتْفه،

كذلك الإسراف فى العبادات قد يصل بالإنسان إلى حَتْفه، كذلك الإسراف فى العبادات قد يصل بالإنسان إلى الملل والعجز وعدم القدرة على الاستمرار.

وهو ما أشار إليه الرسول ﷺ فى نصيحته للثلاثة نفر الذين قرر أحدهم أنْ يصومَ ولا يفطر، وقرَّر الآخر ألاَّ يأتى النساءَ أبداً أى لا يتزوج، وقرَّر الثالث أنْ يقومَ الليل ولا ينام، فأكد لهم الرسول ﷺ أنه أتقاهم لله، ولكنه يصوم ويفطر، ويقوم الليلَ وينام، ويتزوّج النساء.

وانتهى الى قوله: ((فمَنْ رغبَ عن ذلك فليس مني))، وهو ما أشار إليه في موضع آخر في قوله: ((إن المُنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى)).

سورة الشعراء

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ
لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن
كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ
لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ
نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ
وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ
مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ
﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء]

الميقات: أي الوقت المعلوم، وفي آية أخرى: ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] وكان يوماً مشهوداً عندهم، ترتدي فيه الفتياتُ أبهى حُلَلها، وكان يومَ عيد يختارون فيه عروس

النيل التي سيلْقونها فيه، فحدد اليوم، ثم لم يترك اليوم على إطلاقه، إنما حدد من اليوم وقتَ الضحى ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه]

وفي لقطة أخرى حدد المكان، فقال: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] يعني: فيه سوائية، إما باستواء المكان حتى يتمكّنَ الجميعُ من رؤية هذه المباراة السحرية، بحيث تكون في ساحة مُستوية الأرض، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التي سيجمع منها السحرة، بحيث لا يكون متطرفاً، يشقّ على بعضهم حضوره.

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسمَ الصورة الكاملة للقصة.

ونرى في هذه المَشُورة حِرْصَ الملأ على إتمام هذا اللقاء، وأنْ يكونَ على رؤوس الأشهاد، لأنهم يعلمون أنها ستكون لصالح موسى، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون في ادعائه الألوهية.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشعراء] أي: أخذوا يدعُون الناس، وكأنهم في حملة دعاية وتأييد، إمَّا لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون في الخفاء، وإما لفرعون، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة.

إننا نشاهد الجمعَ الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة في كرة القدم مثلاً، فما بالُك بمباراة بين سَحَرة مَنْ يدَّعي الألوهية وموسى الذي جاء برسالة جديدة يقول: إن له إلهاً غير هذا الإله؟ إنه حَدَثٌ هزّ الدنيا كلها، وجذب الجميع لمشاهدته.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [الشعراء]

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون في رعيته، فالإلـــه الحـــق يُطْعِـــم ولا يُطْعم، ويُجير ولا يُجَار عليه، الإله الحق يُعطي ولا يأخذ، ولمَّـــا اجتمـــع السحرةُ وهم أبطالُ هذه المباراة، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم فـــي هذا الموقف.

لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه: إنْ كنت تُسخِّر الناسَ في خدمتك دون أجر، فهذه المسألة تختلف، ولن تمر هكذا دون أجر.

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون، وأنه رجل (أَكَلْتى)، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين، ولا ندري فربما جاء آخرُ يُهدِّد هذه الألوهية، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء]

هنا يتنازل فرعونُ عن تعاليه وكبريائه، ويُذعن لشروط سَحرته، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] فسوف تكونون من خاصّتنا، نستعين بكم في مثل هذه الأمور، ولا نستغني عنكم؛ لأنكم الذين حافظتُم على باطل ألوهيتنا.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشعراء]

هنا كلام محذوف، نعرفه من سياق القصة؛ لأن الآيةَ السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة، والقرآنُ يحذف بعضَ الأحداث اعتماداً على فِطْنة السامع أو القارىء، كما قلنا في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان، حيث قال له: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم قال بعدها: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النمل] وحذف ما بين هذين الحدثين مما نعلمه نحن من السياق.

وقوله: ﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشعراء] هذه هي الغاية التي انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ فكانت العصيّ والحبال هي آلات سحرهم ﴿ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء] بعزة فرعون: هذا قَسَمهم، وما أخْيبَهُ من قَسَم؛ لأن فرعونَ لا يُغلَب ولا يُقهر في نظرهم.

والعزة تعني عدم القهر وعدم الغلبة، لكن عزةَ فرعونَ عزةٌ كاذبةٌ وأنَفةٌ وكبرياء بلا رصيد من حق، وعزةٌ بالإثم كالتي قال الله عنها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص] أي: عزة بإثم، وعزة بباطل.

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ.. ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

فصدّق القرآنُ على قولهم بأن الأعزَّ سيُخرج الأذلَّ، لكن ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

وما دام الأمرُ كذلك فأنتم الأذلّة، وأنتم الخارجون، وقد كان.

ويُقال: إن أدوات سحرهم وهي العصيّ والحبال كانت مُجوّفة وقد ملأوها بالزئبق، فلما ألقوْهَا في ضوء الشمس وحرارتها أخذتْ تتلاعب، كأنها تتحرك، وهذا من حيَل السَّحَرة وألاعيبهم التي تُخيِّل للأعين وهي غير حقيقية، فحقيقة الشيء ثابتةٌ، أمّا المَسْحور فيُخيَّل إليه أنها تتحرك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ [الشعراء]

ولم يَأْت إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرةً بعد أنْ ألقى السحرةُ، إنما هنا أحداثٌ ذُكِرتْ في آيات أخرى، وفي لقطات أخرى للقصة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه]

هكذا كانت الصورة، فلما خاف موسى ثبَّته ربُّه، وأيّده بالحقّ وبالحجة، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة، ليوجهه وليُعدّل سلوكه، ويشدّ على قلبه، وما كان الحق -تبارك وتعالى- ليرسله ثم يتخلى عنه.

وقد قال له ربه قبل ذلك: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وقال: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه] فالحقُّ سبحانه يُعطي نبيه موسى عليه السلام الأوامر، ويعطيه الحجةَ لتنفيذها، ثم يتابعه بعنايته ورعايته.

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح عليه السلام: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا.. ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث، ويُكمّل بعضها بعضاً، وهذا يظنه البعضُ تكراراً، وليس هو كذلك.

إذن: جاء إلقاءُ موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ [طه]

وهنا: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشعراء]

ومعنى ﴿ تَلْقَفُ ﴾: تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة، أما السرعة واختصار الزمن والقوة، فتدل على الأخْذ بشدة وعُنْف، وفي هذا دليلٌ على أنه خاض المعركة بقوة، فلم تضعف قوتُه لما رأى من ألاعيب السَّحَرة.

ومعنى ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشعراء] من الإفك، يعني: قَلْب الحقائق؛ لذلك سَمّوْا الكذب إفْكاً؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع.

ومنها ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] وهي القرى الظالمة التي أهلكها الله، فجعل عاليها سافلها.

والكذب وقَلْب الحقائق إنما يأتي من أنك حين تتكلم، فللكلام نِسبٌ ثلاث: نسبة في الذِّهْن، ونسبة على اللسان، ونسبة في الواقع، فإنْ طابقتْ النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ، فأنت صادقٌ، وإنْ خالفتْه فأنت كاذب.

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً لأنهم يُغيِّرون الحقيقة ويُخيِّلون للناس غيرها.

ويقول سبحانه: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء]

لم يقُل الحق سبحانه: فسجد السحرة. إنما قال: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء] والإلقاء يدلُّ على سُرْعة الاستجابة، وأن السجودَ تَمَّ منهم دون تفكير؛ لأنه أمرٌ فوق إرادتهم.

وكأنَّ جلالَ الموقف وهَيْبته وروعةَ ما رَأوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله، صاحب هذه الآية الباهرة؛ لذلك لم يقولوا عندها: آمنَّا بربِّ موسى وهارون، إنما قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وحين نتأمل ردَّ فِعْل السَّحَرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً، ومعلومٌ أن الإيمانَ يسبق العمل، وأن السجودَ لا يتأتي إلا بعد إيمان، فكيف ذلك؟

قالوا: هناك فَرْقٌ بين وقوع الإيمان، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به ؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كلُّ شكٍّ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله، حتى لم يُمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها.

وكأن سائلاً سألهم: لِمَ تسجدون؟ قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء]

وقالوا: ربِّ موسى وهارون بعد ربِّ العالمين، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً: أنا ربُّ العالمين، فأزالوا هذا اللبْس بقولهم ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء]

مثالُ ذلك قول بلقيس ملكة سبأ عندما رأتْ عرشها عند سليمان عليه السلام، لم تَقُلْ: أسلمتُ لسليمان، إنما قالت:

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل]

فأنا وأنت مُسلمان لإله واحد هو الله ربّ العالمين، وهكذا يكون إسلامُ الملوك، وحتى لا يظنّ أحدٌ أنها إنما خضعتْ لسليمان؛ لذلك احتاطتْ في لفظها لتزيل هذا الشك.

سُورَةُ النَّحْلِ

سُورَةُ النَّمْل

إجابة الدُّعاء

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ.. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

حين تعزّ على المؤمن الأسباب فى أمر ما، ويكون قد أعطى كُلَّ جهده لهذا الأمر ولم يتوانَ، ومع ذلك لم يحقق هدفه فعليه أن يقوم إلى الصلاة لأنه استنفد كل وسائل الأخذ بالأسباب، وعليه أن يذهب إلى المسبب.

يقول الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ.. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل] وسبحانه الذى يُجيب المضطرَّ إذا دعاه، وهو الذي يكشف السوء، وهو الذي جعل البشر خلفاء في الأرض. وسبحانه لا شريك له فى مُلكه.

لذلك فإن نبينا ﷺ كان إذا حَزَبه أمر هرع إلى الصلاة، وكان يقول لبلال ﷺ: ((أرحنا بها يا بلال)) أى: بالصلاة.

وقد يقول قائل: لقد دعوتُ الله وأنا مضطرٌ فلم يستجب لى، ولو تأمل هذا القائلُ فيما فعل لأدرك أنه لم يستنفد الأسباب قبل أن يلجأ إلى صانع هذه الأسباب، وإنما استعجل الإنجاز دون أنْ يُقدِّم كلَّ ماعنده من جهد.

مثل ذلك ينطبق على قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وتلك قضية منتهية فمَنْ يصدق فى جندية الله يغلب، فإذا ما ادَّعى الجندية فإن الأمر فى ذلك يختلف.

وليس أدلَّ على هذا المثال ممَّا حدث فى غزوة أُحُد، فقد وزَّع الرسولُ قبل المعركة المسئوليات على جُنده، وأمر بعض الرُّماة بالوقوف على جبل أُحُد لحماية ظهر الجيش وحذَّرهم من النزول إلى ساحة المعركة مهما تَكُنْ الظروف إلى الدرجة التى قال لهم فيها:

((إذا رأيتمُونا تخطَّفتنا الطيرُ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإنْ رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)) لكنهم خالفوا أمر الرسول ونزلوا ساحة المعركة عندما وجدوا الهزيمة تحيق بالمشركين، والمسلمون يجمعون الغنائم.

والسؤال هنا: هل هؤلاء الجُنْد فى هذه اللحظة جُنْد الله، لهم حَقّ الغلب أم أنهم خرجوا عن الجندية لله بعد مخالفتهم أمر رسول الله ليدخلوا فى جندية أنفسهم التى تاقت إلى الغنائم، لكنهم لو ظلُّوا ملتزمين بأمر رسول الله ﷺ لكانوا هم الغالبون، ولَمَا حدثت الهزيمة.

سورة القصص

سورة القصص

إنَّ اللهَ لا يُحبُّ الفَرحين

﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ
وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن
كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى
ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ
أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ
يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ
ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ
ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ
لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا
يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص]

فلم يتكلم عن قارون وجزائه في الآخرة، إنما يجعله مثَلاً وعبرةً واضحة في الدنيا لكلِّ مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع.

لذلك يقولون: لا يموتُ ظالمٌ في الدنيا حتى ينتقمَ الله منه، ولم يَرَ الناسُ فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم: لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أنْ نشعرَ، ف ... ب الدنيا، فوراء هذه الدار

أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وعَدْل الله –عزَّ وجَلَّ– يقتضي هذه المحاسبة.

والحق –تبارك وتعالى– يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله، ويحذر عقابه، والعبرة هنا بمَنْ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم، وأغنى أغنيائهم، والفتوة فيهم، فحين يأخذه الله يكون في أَخْذه عبرة لمن دونه.

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الإسكندرية، فتجمّع عليه بعضُ زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم، فألقاه في الأرض، وعندها تفرَّق الآخرون وانصرفوا عنه.

ومن هذا المنطلق أخذ اللهُ تعالى قارون، وهو الفتوة ورمز الغِنى والجاه بين قومه، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ.. ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

إذن: حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِي بصناديد الكفر، فقد واجه فرعونَ الذي ادَّعى الألوهية، وواجه هامان، ثم موسى السامري الذي خانه في قومه في غيبته، فدعاهم إلى عبادة العجل.

ومُني من قومه بقارون، ومعنى: ﴿ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ إما لأنه كان من رحمه من بني إسرائيل، أو من قومه يعني: الذين يعيشون معه.

والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا، لكن المفسرين يقولون: إنه ابنُ عمه.

ثم إن موسى عليه السلام طلب من قارون زكاة ماله، دينار في كل ألف دينار، ودرهم في كل ألف درهم، فرفض قارونُ وامتنع، بل وألَّب الناس ضد موسى عليه السلام.

ثم دبَّر له فضيحة ليصرفَ الناسَ عنه، حيث أغرى امرأةَ بغيا فأعطاها طِستاً بالذهب، على أن تدَّعي على موسى وتتهمه، فجاء موسى عليه السلام ليخطبَ في الناس، ويُبيِّن لهم الأحكام، فقال: مَنْ يسرق نقطع يده، ومَنْ يزني نجلده إنْ كان غير مُحصن، ونرجمه إنْ كان مُحصناً، فقام له قارون وقال: فإن كنتَ أنت يا موسى؟ فقال: وإنْ كنتُ أنا.

وهنا قامت المرأة البغيُّ وقالت: هو راودني عن نفسي، فقال لها: والذي فلق البحر لَتقُولِنّ الصدق فارتعدتْ المرأة، واعترفتْ بما دبَّره قارون، فانفضح أمرُه، وبدأت العداوةُ بينه وبين موسى عليه السلام.

وبدأ قارون في البَغْي والطغيان حتى أخذه الله، وقال في حقِّه هذه الآيات: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ.. ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

والبغي: تجاوز الحدّ في الظلم، خاصةً وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه، وكأنه يُمثّل مركز قوة بين قومه، والبغيُ إما بالاستيلاء على حقوق الغير، أو باحتقارهم وازدرائهم، وإما بالبطر.

ثم يذكر حيثية هذا البغي، فيقول: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ.. ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

كلمة (مفاتح) كما في قوله: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ.. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ولو قلنا: مفاتح جمع، فما مفردها؟ لا تقلْ: مفتاح لأن مفتاح جمعها مفاتيح، أما مفاتح، فمفردها (مَفْتح) وهي آلةُ الفتح كالمفتاح، وهي على وزن (مَبْرد).

فالمعنى: أن مفاتيح خزائنه لو حملتْها عصبة تنوء بها، وهذه كناية عن كثرة أمواله، نقول: ناء به الحِمْل، أو ناء بالحمل، إذا ثقُل عليه، ونحن لا نُميِّز الخفيفَ من الثقيل بالعين أو اللمس أو الشم، إنما لا بُدَّ من حَمْله للإحساس بوزنه.

هذه الحاسة هي حاسة العَضَل، فالحملْ الثقيل يُجهد العضلة، فتشعر بالثقل، على خلاف لو حملتَ شيئاً خفيفاً لا تكاد تشعر بوزنه لخفَّته، ولو حاولتَ أنْ تجمع أوزاناً في حيِّز ضيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقلَ يفضحك لأنك تنوء به.

والعُصْبة: هم القوم الذين يتعصَّبون لمبدأ من المبادئ بدون هَوىَ بينهم، ومنه قولُ إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ.. ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

إنها كلمةُ حقٍّ خرجتْ من أفواههم دون قَصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً مُتعصِّبين بعضهم لبعض في مواجهة يوسف وأخيه، وكَانَا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة، وكانوا جميعاً من أم واحدة، ويوسفُ وأخوه من أم أخرى، فطبيعيٌّ أنْ يميلَ قلبُ يعقوب عليه السلام مع الضعيف.

وقالوا: العصبة من الثلاثة إلى العشرة، وقد حدَّدهم القرآن بقوله: ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبًا.. ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] وهم

إخوته، ومنهم بنيامين ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [يوسف] أي: أباه وأمه.

فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العُصبة.

وهكذا تتكاتف آياتُ القرآن، ويُكمل بعضُها بعضاً، ومن الخطأ أنْ نأخذَ كلَّ آية على حِدَة، ونفصلها عن غيرها في ذات الموضوع.

ثم يقول سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾.. ﴾ [القصص] والنهيُ هنا عن الفرح المحظور، فالفرح: انبساطُ النفس لأمر يسرُّ الإنسان، وفرْق بين أمر يسرُّك لأنه يُمتعك، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك، فالمتعةُ غير المنفعة.

فمثلاً، مريضُ السُّكر قد يأكلُ المواد السكرية لأنها تُحدِث له متعةً، مع أنها مُضرَّة بالنسبة له. إذن: فالفرحُ ينبغي أنْ يكونَ بالشيء النافع، لأن اللهَ تعالى لم يجعل المتعةَ إلا في النافع.

فحينما يقولون له ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ [القصص] أي: فرح المتعة، وإنما الفرح بالشيء النافع ولو لم تَكُنْ فيه متعة، كالذي يتناول الدواء المُرَّ الذي يعود عليه بالشفاء.

لذلك يقول تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

ويقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ..﴿٥﴾ ﴾ [الروم] فسمَّاه اللهُ فَرحاً ؛ لأنه فَرحَ بشيء نافع؛ لأن انتصارَ الدعوة يعني أن مبدءك الذي آمنتَ به وحاربتَ من أجله سيُسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع.

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ.. ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة] هذا هو فَرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله، رافضون للخروج معه، ويسُرُّهم قعودهم، وتركه يخرج للقتال وحده.

فقوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾.. ﴾ [القصص] أي: فرح المتعة الذي لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها، فشاربُ الخمر يشربها لمَا لها من متعة مؤقتة، لكن يتبعها ضررٌ بالغٌ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً: إنه فَنٌّ جميل وفنٌّ رَاقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما، لكن شرطَ الفنِّ الجميل الراقي أنْ يظلَّ جميلاً، لكن أنْ ينقلبَ بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قُبْحاً، كما يحدث في الرقص، فلا يُعَدُّ جميلاً.

لاَ تَنْسَ نَصيبكَ منَ الدُّنيا

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص]

معنى ﴿ وَٱبۡتَغِ ﴾ أي: اطلب ﴿ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ بمَا أنعمَ عليك من الرزق ﴿ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ.. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لكَ الحياةَ الدنيا، فسوف يَفْنى معك في الدنيا، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول.

وحين تحبُّ نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبَّثُ به، فاعلم أن دنياك لن تُمهلك، فإمَّا أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت، أو يفوتك هو حين تفتقر. إذن: إنْ كنتَ عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه في حَوْزتك، فانقله إلى الدار الباقية، ليظلَّ في حُضنك دائماً نعيماً باقياً لا يُفارقك، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة.

وفي الحديث الشريف لما سأل رسولُ الله ﷺ أم المؤمنين عائشة عن الشاة التي أُهديَتْ له قالت بعد أنْ تصدَّقتْ بها: ذهبتْ إلا كتفها، فقال ﷺ: ((بل بقيتْ إلا كتفها)).

ويقول ﷺ: ((ليس لكَ من مالكَ إلا مَا أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ)).

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائلٌ يسأله، يقول له: مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة.

والإمام علي ﷺ جاءه رجلٌ يسأله: أأنا من أهل الدنيا، أم من أهل الآخرة؟ فقال: جوابُ هذا السؤال ليس عندي، بل عندك أنت، وأنت الحكَم في هذه المسألة، فإنْ دخل عليك مَنْ تعودتَ أنه يُعطيك، ودخل عليك مَنْ تعودتَ أنْ يأخذ منك، فإنْ كنتَ تبشٌّ لمن يعطي فأنت من أهل الدنيا، وإنْ كنتَ تبشٌّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك فأنت من أهل الآخرة.

فالإنسان يحب منْ يعمر له ما يحب، فإنْ كنتَ مُحباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك، وإنْ كنتَ مُحباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك.

وإذا كان ربنا عَزَّ وجلَّ يُوصينا بأنْ نبتغيَ الآخرة، فهذا لا يعني أن نترك الدنيا: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعضُ دليلاً على الانغماس في الدنيا ومُتعها.

وحين نتأمل ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] نفهم أن العاقلَ كان يجب عليه أنْ ينظرَ إلى الدنيا على أنها لا تستحقُ الاهتمام، لكن ربَّه لَفتَهُ إليها ليأخذَ بشيء منها تقتضيه حركةُ حياته. فالمعنى: كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكَّرني اللهُ بها.

ولأهل المعرفة في هذه المسألة مَلْمحٌ دقيقٌ يقولون: نصيبكَ من الشيء ما ينالك منه، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام، وعلى هذا فنصيبكَ من الدنيا هو الحسنةُ التي تبقى لك، وتظلّ معك، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة، فكأن نصيبكَ من الدنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة، فتخدم دنياك آخرتك.

أو: يكون المعنى مُوجَّهاً للبخيل المُمْسك على نفسه، فيُذكِّره ربه ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] يعني: خُذْ منها القَدْر الذي يعينك على أمر الآخرة، لذلك قالوا عن الدنيا: هي أهم من أن تُنْسى، لأنها الوسيلةُ إلى الآخرة، وأتفه من أنْ تكونَ غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى وأبقى وأدوم.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ.. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص]

الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه، كما جاء في الأثر: ((تخلَّقوا بأخلاق الله)).

فكما أحسن اللهُ إليك أحسِنْ إلى الناس، وكما تحب أنْ يغفرَ اللهُ لك اغفر لغيرك إساءته ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور]

وما دام ربُّك يعطيك، فعليك أنْ تعطي دون مخافة الفقر؛ لأن اللهَ تعالى هو الذي استدعاك للوجود؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك، لذلك حين ترى العاجز عن الكسب -وقد جعله ربُّه على هذه الحال لحكمة- حين يمُدُّ يده إليك، فاعلم أنه يمدُّها لله، وأنك مناولٌ عن الله تعالى.

ونلحظ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا.. ﴿١١﴾ ﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله، لماذا؟ لأن هذا العبد عبدي، مسئولٌ منِّي أنْ أرزقه، وقد ابتليتُه لحكمة عندي -حتى لا يظنّ أحدٌ أن المسألةَ ذاتيةٌ فيه، فيعتبر به غيره- فمَنْ إذن يُقرضني لأسُدَّ حاجةَ أخيكم؟

وقال تعالى: ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ. ﴿١١﴾ ﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب؛ لأنه أراد أنْ يحترمَ ملكيتك، وأنْ يحترمَ انتفاعك وسَعْيك.. كما لو أراد والدٌ أنْ يُجريَ لأحد أبنائه عمليةً جراحيةً مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء، فيقول لأولاده: اقرضوني من أموالكم لأُجري الجراحةَ لأخيكم، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض.

وفي الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ فوجدها تجلو درهماً فسألها: ماذا تصنعين به؟ قالت: أجْلوه، قال: لِمَ؟ قالت: لأنِّي نويتُ أنْ أتصدَّقَ به، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أنْ يقعَ في يد الفقير.

إذن: فالمالُ مالُ الله، وأنت مُناولٌ عن الله تعالى.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ ﴾ [القصص]، والفساد يأتي من الخروج عن منهج الله، فإنْ غيَّرتَ فيه فقد أفسدتَ، فالفسادُ كما يكون في المادة يكون في المنهج، وفي المعنويات، يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا.. ۝ ﴾ [الأعراف]

فالحقٌّ سبحانه خلق كلَّ شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه، فلا تعمد إليه أنت فتفسده، ومن هذا الصلاح المنهج، بل المنهج وهو قِوَامُ الحياة المعنوية أوْلَى من قِوام الحياة المادية.

إذن: فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تُفسده، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه، وقد تبني حوله سوراً يحميه.

سورة العنكبوت

سُورَةُ العنْكَبُوت

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت]

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ.. ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] دليلٌ على القول باللسان، وعدم الصبر على الابتلاء، فالقولُ هنا لا يُؤيِّده العمل، ولمثل هؤلاء يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف]

ويقول الحق سبحانه وتعالى في صفات المنافقين: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون]

فالله تعالى لا يُكذِّبهم في أن محمداً رسولُ الله، إنما في شهادتهم أنه رسولُ الله؛ لأن الشهادةَ لا بُدَّ لها أنْ يُواطئَ القلبُ اللسانَ، وهذه لا تتوفر لهم.

ومعنى: ﴿ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ.. ﴾ [العنكبوت] أي: بسبب الإيمان بالله فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله، إلا أنه آمن ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ.. ﴾ [العنكبوت] فتنة الناس أي: تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله.

إذن: خاف عذابَ الناس وسوّاه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر، وهذا غباءٌ في المساواة بين العذابين؛ لأن عذابَ الناس سينتهي ولو بموت المؤذي المعذِّب، أما عذابُ الله في الآخرة فبَاقٍ لا ينتهي، والناس تُعذِّب بمقدار طاقتها، واللهُ سبحانه يُعذِّب بمقدار طاقته تعالى وقدرته، إذن: فالقياس هنا قياس خاطيء.

وإنْ كانت هذه الآيةُ قد نزلتْ في عياش بن أبي ربيعة، فالقاعدة الأصولية تقول: إن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكان عيَّاشُ ابن أبي ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التي هي أسماء.

فلمَّا أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنتْ أمه أسماء، وقالت: لا يُظلّني سقفٌ، ولا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، ولا أغتسل حتى يعود عيَّاش إلى دين آبائه، وظلتْ على هذه الحال التي وصفتْ ثلاثةَ أيام حتى عضَّها الجوعُ، فرجعت.

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه، وظلاًّ يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها، فوافق عياشٌ على الذهاب إلى أمه، لكن رفض الردة عن الإسلام، فلما خرج الثلاثةُ من المدينة قاصدين مكة أوثقوه في الطريق، وضربه أبو جهل مائة جلدة، والحارث مائة جلدة.

لكن كان أبو جهل أرأفَ به من الحارث ؛ لذلك أقسم عيَّاش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم، وبعد أن استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة، فقابل أخاه الحارث عند قباء، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله، ونفَّذ ما توعده به فقتله.

ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلتْ الآيةُ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ.. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النساء]

ونزلت: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ.. ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أي: أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر، ولم يُرد أنْ يفرّ من عذاب الله ويؤمن.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ.. ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أي: اجعلوا لنا سَهماً في المغنم ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] فاللهُ سبحانه يعلم ما يدور في صدورهم وما يتمنوْنَهُ لنا.

لذلك يقول سبحانه: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً.. ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت]

نعم، الحقُّ سبحانه يعلم حالَ عباده حتى قبل أنْ يُخلقوا، ويعلم ماذا سيحدث لهم، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث، وعِلْم بعد أنْ يقع الحدثُ نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال: سأفعل بهم كذا وكذا؛ لأني أعلم

ما يحدث منهم لَقالوا: لا والله ما كان سيحدث منا شيءٌ ؛ لذلك يتركهم حتى يحدثَ منهم الفعلُ.

أوْهَن البيُوتِ

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

يقول الحق سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت]

فهذا مثلٌ في قمة العقيدة، ضربه اللهُ لنا للتوضيح وللبيان، ولتقريب المسائل إلى عقولنا، وإياك أنْ تقولَ للمثَل الذي ضربه اللهُ لك: ماذا أراد اللهُ بهذا؟

فقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أي: شركاء وشفعاء ﴿ كَمَثَل

ٱلْعَنكَبُوتِ..﴾ هذا المخلوق الضعيف الذي ينسج خيوطه بهذه الدقة التي نراها، والذي نسج خيوطه على الغار في هجرة رسول الله ﷺ، واشترك مع الحمامة في التعمية على الكفار.

﴿ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ ﴾ أي: من هذه الخيوط الواهية ﴿ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ﴾ [العنكبوت]

فخطأ العنكبوت ليس في اتخاذ البيت، إنما في اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له، وهبّة ريح كافية للإطاحة بها، ويُشترط في البيت أنْ يكونَ حصيناً يحمي صاحبه، وأنْ تكونَ له أبوابٌ ونوافذُ وحوائط.. الخ.

أما لو اتخذها شبكةً لصيد فرائسه لكانَ أنسب، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق في الخَلْق لكانَ أنسبَ وأجْدَى.

كما أن بيتَ العنكبوت تهدمه هَبَّةُ ريح وتُقطعه، وأنت مثلاً تُنظِّف بيتك، وربما تقتل العنكبوتَ نفسه، فكذلك طبْق الأصل يفعل اللهُ بأعمال الكافرين: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ.. ۝١٨ ﴾ [إبراهيم]

ومعنى: ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ﴾ [العنكبوت] أي: حقيقة الأشياء، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد، إنما لأنْ تكون دلالةً

على قدرة الخالق –عزَّ وجلَّ– فلو فكَّروا فيها وفي أسرار خَلْقها لاهتدوْا من خلالها للإيمان.

فهي –إذن– دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون، فالجبلُ هذا الصخر الذي تنحتون منه أصنامكم هو أولُ خادم لكم، ولمن هو أدْنى منكم من الحيوان والنبات، وسبق أنْ قلنا: إن الجمادَ يخدم النبات، ويخدم الحيوان، وهم جميعاً في خدمة الإنسان.

إذن: فالجماد خادم الخدَّامين، ومع ذلك جعلتُموه إلهاً، فانظروا إذن إلى هذه النقلة، وإلى خِسَّة فكركم، وسُوء طباعكم، حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها– أي: في زعمكم.

فكيف وقد ميَّزك اللهُ على كلِّ الأجناس؟ لقد كان ينبغي منك أنْ تبحثَ عن شيء أعلى منك يناسب عبادتك له، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً.

بل واقرأ إنْ شئْتَ عن الجماد قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا.. ۝١٠ ﴾ [فصلت] أي: في الأرض ﴿ رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ﴾ [فصلت]

فكأن الجبالَ الصمَّاء الرَّاسية هي مخازن القُوت للناس على مَرِّ الزمان، فمنها تتفتتْ الصخور، ويتكوَّن الطَّمْي الذي يحمله إلينا الماءُ في أيام الفيضانات، ومنها تتكوَّن الطبقة المخصبة في السهول والوديان، فتكون مصدرَ خصْب ونَماء دائم ومتجدد لا ينقطع.

وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيلُ مصر إلينا من خير مُتجدد كلَّ عام، وكيف أن الماءَ كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمي.

فيا ليت عُبَّادَ الأصنام الذين نحتوا الصخورَ أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أنْ يعبدوها من دون الله.

وفي موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في قمة العقيدة أيضاً فيقول سبحانه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلاًۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنَّهي، وبين عبد مملوك لعدة شركاء، وليْتَهم متفقون، لكن ﴿ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ مختلفون، لكلٍّ أوامر، ولكلٍّ منهم مطالب، فكيف إذن يُرضيهم؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه؟

فالذي يعبد اللهَ وحده لا شريكَ له كالعبد لسيد واحد، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون. إذن: فالحقُّ سبحانه يضربُ الأمثالَ للناس في الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً.

ثم يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناقُ قالوا: نحن لا نعبد الأصنام، إنما نعبد الكواكب التي تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكةَ، فردَّ اللهُ عليهم: ﴿ مِن شَيۡءٍ.. ﴾ للتقليل، كأنَّ ما يدعونه

من دونه لا يُعَد شيئاً، أو هو أتفهُ من أنْ يكونَ شيئاً، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أيِّ شيء.

أو أن (شَيْء) من قولنا: شاء يشاء شيئاً، فالشيءُ ما يُرادُ من الغير أنْ يفعله، والذي شاءَ هو اللهُ تعالى، وكأنهم يعبدون الشيءَ ويتركون خالقه، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه، فماذا جرى لكم؟!

تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، وبعد أنْ كرَّمكم اللهُ تُهينون أنفسكم، وترضون لها الدون، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً في الخَلْق، والأصنام جمادات، وهي أدنى أجناس الوجود.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت] العزيز الذي يَغْلب ولا يُغلب، وهو الحكيم في كُلِّ ما قضى وأمر.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

فمَنْ يسمع المثلَ من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ.. ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة] حيث استقلُّوا البعوضة، ورأوْها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً.

ونقول لهم: أنتم لستم عاقلين ولا عالمين بدقَّة المثَل، واقرأوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ.. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ.. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

دَعْك من مسألة الخَلْق، وتعالَ إلى أبسط شيء في حركة حياتنا إذا وقع الذبابُ على طعامك فأخذ منه شيئاً، أتستطيع أنْ تستردَّه منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت؟

إذن: فالذبابةُ ليستْ شيئاً تافهاً كما تظنون بل وأقلّ منها الناموس والميكروب وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله، فيها أسرارٌ تدلُّ على قدرته تعالى.

كما قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ..﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة] أي: ما فوقها في الصِّغَر، ولك أنْ تتأملَ البعوضة، وهي أقلّ حجماً من الذباب، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد، ويمتصّ الدم الذي لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة، والميكروب الذي لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيُمرضه ويهدّ كيانه، وربما انتهى به إلى الموت.

إذن: ففي هذه المخلوقات الحقيرة في نظرك عِبَرٌ وآيات، لكن لا يعقلها إلا العالمون، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غيرُ مؤمنين بالله، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن، ومنهم مَنْ لم يعقلها فظلَّ على كفره على أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرارَ الخالق في الخَلْق.

لذلك جاء في الأثر: ((العالم الحق هو الذي يعلم مَنْ خلقه، ولِمَ خلقه)).

سورة الروم

سُورَةُ الرُّوم

مُعجِزَةٌ.. فِي كُلِّ العُصُور

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ
بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ
ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ.. ۝٥ ﴾ [الروم]

لأن الإسلام آخر الرسالات، والقرآن الكريم آخرُ الكتب، فقد جاء عطاؤه متساوياً مع قدرة العقول فى كلِّ زمان ومكان إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

وقد فسَّر الرسولُ الكريم ما يتعلق فى القرآن بالتكليف الإيمانى، وتَرْك ما يتعلَّق بغير التكليف للأجيال القادمة، وكلما مَرَّ الزمانُ أتاح اللهُ لعباده من أسرار آياته فى الأرض ما يشاء ليظلَّ القرآنُ معجزةً فى كُلِّ عصر.

وإذا كان القرآنُ قد نزل يتحدَّى العربَ فى اللغة والبلاغة فقد تحدَّى غيرهم أيضاً، لأنه دينُ الناسِ جميعاً وفى وقت نزوله أيضاً، فقد تنبأ بنتائج حرب ستتمّ بعد سنوات، حيث كان الرومُ والفُرْسُ فى صراع وانتصر الفرس على الروم، وكانتا أكبرَ قوتين فى ذلك الوقت.

فإذا بالقرآن يخبر بهزيمة الفرس، بعد ذلك نزل قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ.. ۝٥ ﴾ [الروم]

ولو أن القرآنَ من عند النبى ﷺ لَمَا دخل فى قضية لم يطلب منه أحدٌ أنْ يدخلَ فيها، لأنه لو حدث وكانت النتائجُ لصالح الفرس، أو أنهما تَصَالحَا ولم تحدث معركة لَضَاعتْ قضيةُ الدينِ كلِّه.

لكن لأن الله سبحانه هو القائل وهو الفاعل جاءتْ هذه الآيةُ كمعجزة لغير العرب وقتَ نزول القرآن، وحدثتْ المعركةُ فعلاً، وانتصر الرومْ كمَا أخبر القرآنُ.

وهذا الإعجاز الذى حدث لغير العرب يشبه ما كان يأتى به القرآنُ فى الأحداث التى كانت فى مكة، ويُحدِّد القرآنُ النتائجَ التى تنتهى إليها كالحكم على أبى لهب بعدم الإيمان، وقد كان أبو لهب يستطيع أنْ يدّعى الإيمانَ ليُكذِّبَ الرسول.

ولكنه لأن اللهَ هو القائلُ فهو يدرك خائنةَ الأعين وما تُخفى الصدُّور، وأن العمى الذى فى قلب أبي جهل سيمنعه من أنْ يبصر هذه الحقيقةَ، وظلَّ أبو لهب فى غيِّه سادرا، ومات هو وامرأتُه كافريْنِ.

النوم آيةٌ من آيات الله

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم]

النّعاس عبارة عن السِّنَة الأولى.. بكَسْر السين المُشدّدة.. التى تأخذ الإنسان عندما يحب أنْ ينام، ويسميها العامةُ فى مصر ((التعسيلة)) ويقولون ((فلان معسل)) أى: أخذته سنَةُ النوم، وهى ليستْ نوماً بل فتورٌ فى الأعصاب يعقبه النومُ، وهذا من آيات الله تعالى فى أنْ يهبَ الإنسان راحةً مُؤقتة وليستْ نوماً.

وهو ما حدثَ للمسلمين فى إحدى المعارك، حيث يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال]

ويقول الحق سبحانه عن نفسه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

أى: أنه جلَّ وعلا لا يأخذه النومُ الخفيف، وبالتالى لا يأخذه النومُ الثقيل، لأن السِّنَة هى إلحاحٌ من الجسم فى طلب النوم، ويكون نَوْماً خفيفاً، وسبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فهو عزَّ وجلَّ لا يتجسد أو يتمثَّل فى شيء، لا السِّنة تأخذه، ولا النوم يُقاربه.

ونلحظ أن الإنسان إذا ما تكلَّم بجانب مَنْ تأخذه السِّنَة فهو يصحو وينتبه. أما النائم بعُمْق فقد لا يصحو. فالسِّنَة هى الداعى الخفيف للراحة، أما النوم فهو الدَّاعى الثقيل. وهنا أنزل اللهُ عليهم النعاسَ بمثابة مُقدّمة للنوم ليستريحوا قليلاً.

ونعلم أن النومَ آيةٌ من آيات الله عزَّ وجلَّ فى كَوْنه، لأن الجسم حين يُعبِّر عن نفسه بالحركة، والطاقة، ويأكل الغذاء ويشرب الماء، ويتنفَّس الهواء كلِّ ذلك يتحوَّل إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة.

وذلك نتيجة التفاعلات التـى لهـا عوادمهـا فـى شـكل فضـلات يُخرجها الجسمُ فى شكل ثانى أكسيد كربـون، وبـراز وصـماخ الأذن وعَرَق، وعماص العين.

لكن الوسيلة الوحيدة لاستعادة التوازن الكيميائى المناسب للإنسان هي إراحة الجسم لتتفاعل مواد الجسم نفسه مع نفسها ليعود طبيعياً وذلك لا يحدث إلا بالنوم.

لذلك فإن الإنسان الذى يسهر كثيراً مهما أكل أو شرب ليمنح الجسم ما يحتاج من طاقة لا يتمكن من ذلك إلا إذا أخذ قسطاً من النوم. لذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم]

أخلاق الفطرة

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أنْ يجعلَ لكلِّ مخلوق فى كَوْنه هدفاً من خَلْقه يتساند مع أهداف الكائنات الأخرى، ليُحقّقَ فى النهاية الهدفَ الأسْمى والأشمل الذى خُلق الإنسانُ من أجله، ألاَ وهو خلافةُ الله فى أرضه.

والخَلْق فى معناه هو إيجادٌ من عدم، وسبحانه عندما خلق الكونَ وهو أعلمُ به وأعلمُ بخصائصه وما يُصلحه خلقَ الكائنات بصفاتها التى تتوافقُ مع الهدف الأسمى للخَلْق.

فإذا ما استُعملَ مخلوقٌ لغير غايته سواءٌ خرجَ هو عن إطار الغاية منه أو أخرجه آخرون فإن ذلكَ يُؤثر فى منظومة الأرض، ولا يكون مردوده إلا تعب ونَصَب للذى خرج بالغاية منه عن مسَارها، وكذلك للآخرين.

يقول تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] وهذا يعنى أنَّ الخَلْقَ كلَّه على أصلْ الفطرة.. فإذا ما حاول أحدٌ أنْ يُغيّر الفطرةَ، فهذا تغييرٌ لخَلْق الله.

والفطرةُ تعنى الصفاءَ الأولى فى النفس والطبيعة، ومثالُ ذلك حين يوجد الإنسانُ فى بيئة لا تكذب فلن يعرفَ فى حياته الكذبَ، وعندما

يُوجد فى بيئة لا تسرق فلن يعرفَ السرقةَ، وإنما يتعرَّف الإنسانُ على المُوبقات من النقص المُجتمعيّ الذى يعانى من مخالفة الفطرة.

ومن هنا فإن الذى يرتكب إثماً لا شكَّ أنه يعانى من ذلك ويُكابد تحمّل فعل هذا الإثم فى نفسه، وكثيرون لا يتحملون ما يُلاقونه فيعترفوا للناس أو المسئولين ليستريحوا، لأنهم يرتكبون شيئاً مُغايراً لطبيعتهم وفطرتهم.

فإذا ما شاعَ الإثمُ فى المجتمع وأصبحتْ مخالفةُ الفطرة السليمة قاعدةً، شُوهدَ الفسادُ فى كلِّ مكان حتَّى لَيكاد المرءُ يظن أنَّ الفسادَ أصلٌ، والصلاحُ طارئٌ عليه.

ذلك لأنَّ المفسدين انتهجوا منهجَ الشيطان ظناً منهم أنهم يتجهون إلى السعادة بما يُوسوسه لهم الشيطانُ من الأمانى والوعود البرّاقة التى لا تكون إلا سراباً إذا سار خلفه الظمآنُ ظل سائراً دون وصول إلى شيء.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء]

عندما يُصبحُ الفسادُ قانوناً

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]

حين يُقنّن الفسادُ فى مجتمع، وتُوضع القوانين التى تُنظّمه، ويُحمى أصحابه علانيةً، فإن الدلالة الأولى التى يخرج بها المتأملُ هى أن

الفسادَ قد بلغ مَبلغاً فى هذا المجتمع لم يَعُدْ فيه شذوذ عن المألوف، وصارتْ الطبائعُ البشريةُ تتعامل معه بلا تأذٍّ أو وَجَل منه، وإنما صار أصلاً لا فَرْعاً، وقاعدةً لا استثناءً.

الأمر الذى يحقّ فيه على هذا المجتمع قولُه تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]

فى الوقت نفسه لا يعفى المؤمنين –فى أىّ مجتمع– من المسئولية أنْ يتعاملوا مع هذا الفساد.. إقرارُ الناس له أو أنه أصبح عُرْفاً أو قانوناً يُعمل به، كما يحدث فى المجتمعات الأوروبية التى يعيش بها مسلمون يُسلِّمون بالاختلاط بين الرجال والنساء، لأن المجتمعَ الذى يعيشون فيه يتعامل مع هذه التصرفات كأساس.

أو أنهم يطالبون بتحليل شرب القليل من الخمر حتى يقاوموا بردَ البلاد التى يعيشون فيها، وغير ذلك من أمور صارتْ فى تلك البلاد قاعدةً، لأن فسادَ المجتمع وقانونه ليس مُبرراً لمُسايرة هذا الفساد.

الفساد فى أىِّ مكان أو زمان يرجع فى سببه الأول إلى أكْل المال بالباطل، لأن الصانع الذى لا يُجيد صَنْعته ويبيعها على أنها جيدةٌ يأكل مال الناس بالباطل، وكذلك التاجر الذى يَغُشّ، والمتعامل بالربا، والذى يحتكر السلع حتى يرتفع سعرها، والذى يُغرق السوق حتى تَبور سلع الآخرين.

ومَنْ يريد أنْ يتعرفَ على أخلاق قوم ينظر إلى معمارهم ليستطيعَ أنْ يُقيّم أخلاقهم، لأن عملية البناء تتدخل فيها أنشطةٌ شتى ومتنوعة تدلّ فى نتائجها على أخلاق المجتمع الذى تُقام فيه البنايات.

ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة]

سورة لقمان

سُورَةُ لُقْمَان

الصَّبر.. بيْنَ الطَّاعَة وَالمَعصيَة

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

الصبر نوعان: صبر على شيء يعنى أداءه، وصبر عن شيء يعنى عدم أدائه، وفى الطاعات يكون الصبرُ على مشقَّة الطاعة مثل الصبر على أن يقوم الإنسان من النوم ليصلى الفجر، واتقاءُ المعاصى يكون الصبر عن الشهوات.

والصبر على إطلاقه مطلوبٌ فى الأمرين: فى الإيجاب للطاعة. وفى السلب عن المعصية. وإذا كانت الجنةُ حُفَّتْ بالمكاره فيكون صبرُ المؤمن على المكاره عن الشهوات لأن النار حُفَّتْ بالشهوات، وإذا رغب إنسانٌ فى تملُّك شيء معيَّن فلم يمتلك ثمنه فهو يصبر عنه أوْلى له من أنْ يستدين.

لذلك يقول أحد الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء، ولكن هناك شيء اسمه رخَص النفس، وكما يقول الشاعر:

وَإِذَا غَلاَ شَيءٌ عَلَيَّ تَرَكْتُهُ فَيَكُونُ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ إِذَا غَلاَ

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]، ويقول أيضاً: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود]

والمحسنون هم الذين أدخلوا على أنفسهم في مقام الإحسان أن ألزموا أنفسهم بجنس ما فرضَ اللهُ فوق ما فرض اللهُ من صلاة أو صيام أو زكاة أو حج بيت الله، لأن العبادةَ ليست اقتراحا من عابد لمعبود، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقرب عبده إليه، وللمحسن أجره الذى يستحقه.

وقد حدَّده الله تعالى فى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

[الذاريات] وللإحسان مدارج ودرجات، ومنها وَصْفُ المحسنين بقوله: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ثم قوله: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

وهو ارتقاءٌ فى مدارج الإحسان، لأن المرحلة الأولى وهى عدم هُجُوع الليل إلا قليلاً، فقد دعا اللهُ المؤمنين لقيام قليل من الليل. المحسنون زادوا فجعلوا القليل نوماً وليس عبادة، وفى المرحلة الثانية لم يطلب اللهُ من المؤمنين القيامَ فى السَّحَر.

ثم فى مرحلة أخرى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

[الذاريات]

والإحسان هو ودّ الله، كما أن الإنسان يتوادّ مع غيره من البشر بمَنْحه من خصوصياته، فإنه بالتطوع فى العبادة يودّ الله سبحانه وتعالى.

سورة السجدة

سُورَةُ السَّجْدَةِ

قُلُوبٌ مُتشَابِهَةٌ

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة]

لأن الكفرَ ملَّةٌ واحدة، والأدعياء يتشاكلون فى مناهجهم وأساليبهم فقد تشابهتْ تشكيكاتهم، وإن اختلفوا حسب طبيعة علاقتهم باللغة العربية وأساليب البلاغة.

فلم يستطع الكفار الأوائل فى عصر الرسول ﷺ أنْ يدَّعوا أنه مُؤلِّفٌ للقرآن لمَا وجدوا فيه من بلاغةٍ تُعجز البشر، فقالوا: إنه سحر يُؤثر، وادعوا على رسول الله الجنون، وتخبَّطوا فى أمور كثيرة.

أما اليوم فكان سهلاً الادعاء بأن القرآن من تأليف الرسول، أو أنه من تأليف أحد الرهبان الذين كانوا يعيشون فى مكة، كان يبثه للرسول، والرسول يُعلنه على الناس بأسلوبه البليغ وعبقريته اللغوية.

وبعيداً عن التأكيد أن الرسول الكريم لم يُعرف عنه أنه يوماً ما كان شاعراً أو خطيباً، أو عرف القراءة والكتابة، فإننا يجب أن ننتبه إلى حقيقة مهمة.

وهى: استحالة أن يكونَ لأحد البلغاء مهما بلغوا ثلاثة أساليب لغوية، يختلف كلٌّ أسلوب فيها عن الآخر كلَّ الاختلاف، وهى: أسلوب القرآن، وأسلوب الأحاديث القدسية، وأسلوب الأحاديث النبوية.

إن المتواتر بين المُفكِّرين ودارسى الأدب واللغة أن لكلٍّ شخص أسلوبه الذى يتميز به، بل إنه بمجرد أنْ يقرأ أحد العارفين باللغة والأدب أسلوباً معيناً من أساليب الكتابة يستطيع بسهولة ويُسْرٍ أنْ ينسبه إلى قائله أو إلى المدرسة الأدبية التى ينتمى إليها، بل إلى الفترة الزمنية التى عاش فيها الأديب كاتب الكلام.

إذن: فاختلاف أساليب القرآن الكريم، والأحاديث القدسية، والأحاديث النبوية أكبرُ دليل على أن القرآن الكريم والأحاديث القدسية ليست من عند رسول الله ﷺ.

وهذا لأنه لا يمكن أنْ ينفعلَ إنسانٌ بأحداث الحياة، فيكتب مرَّةً بأسلوب مختلف تماماً عن أسلوب آخر كتب به موضوعاً آخر، أو يكتب اليوم بأسلوب وغداً بأسلوب آخر.

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب

الإيمانُ والكفرُ فى قلب.. كيْف ؟

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

القلب وعاءٌ لا بدّ أنْ يملأ حيّزه إما باليقين الإيمانى وإما بالكفر، فإذا ملأه الإنسانُ بيقين الإيمان انساب هذا الإيمان فى سائر جوارحه وجوانحه، فتبدو آثارُ هذا الانسياب فى قوله وفى فعله، وفى كل حركة أو خطوة يخطوها.

بل تبدو فى قَسَمات وجهه ونظرات عينيه، لأن هذا الإيمان الذى ملأ قلبه يكون بالنسبة لحركته فى دنيا الناس كحركة الدم بالنسبة للعروق والجسد، وبذلك يصبح هذا الإنسان مطبوعاً على الإيمان، ويزيده اللهُ ثباتاً عليه ويهديه إلى ما يُقوِّيه.

أما منْ يملأ هذا الوعاء بالكفر فإنّ الكفر ينساب إلى سائر جوانحه وجوارحه، وتبدو آثارُ هذا الكفر فى أقواله وأفعاله وسَكَناته وحركاته كأنه مجبولٌ عليه، ويصبح عَوْناً وجنداً من جنود الشيطان يأتى تصرفاته الشيطانية وكأنها تأتى عَفْو الخاطر.

وبالتالى يطبع اللهُ على قلبه، فلا يخرج منه ما ملأه به من كفر، ولا يدخل فيه ما خرج منه من إيمان فطرى.

ولا يجوز أنْ يجتمع إيمان وكفر فى قلب واحد، لأنهما ضدّان لا تنسجم معهما جوارح وجوانح الإنسان، فإذا دخل الإيمان واليقين قلبَ إنسان فرَّ منه الكفرُ وخرج، أما إذا دخل الكفر فلا مكانَ للإيمان فيه.

كما أن الله لم يجعل لإنسان قلبين فى جوفه، أحدهما قلب يؤمن، والآخرُ قلب يكفر كما ادّعى بعضُ الكفار، فقال سبحانه ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

وكذلك الذى يتحدث بالإيمان لكن أفعاله أفعالُ الكافرين، فهو كافرٌ خالصٌ يدَّعى الإيمان أىّ منافق كما سمَّاهم القرآنُ فى سورة كاملة حدّد فيها أوصافهم وحقيقتهم وأخلاقهم، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المنافقون]

أى: أنهم جعلوا من الحَلف والقَسَم وسيلة لإخفاء حقيقتهم وخداع الآخرين.

بداية حرب اليهود للمسلمين

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

جذور العداء اليهودى تمتد حتى عصر الرسول ﷺ، وبخاصة بعد الهجرة من مكة إلى المدينة.

لقد حارب اليهود الإسلام ورسوله ﷺ رغم أنهم كانوا يتوعَّدون به الأوس والخزرج فى المدينة ليقتلوا به العرب، ولكن ما إنْ ظهر الرسول ﷺ حتى عملوا على محاربة الإسلام لأن الإسلام جاء ليُوحد لا ليُفرّق.

واليهود كانوا يستمدون سيادتهم من الإبقاء على الفُرْقة بين "الأوس والخزرج" والإبقاء على نار الحرب مُشتعلةً بينهما فى المدينة·

فلما ظهر الإسلام سارع "الأوس والخزرج" إلى الإيمان بالله بالدين الجديد الذى آخى بينهم وجعلهم أنصاراً للإسلام مما كان إيذاناً بزوال سيادة اليهود من المدينة، لأنه لا حياةَ لهم إلا بالاختلافات والفرقة والفتنة بين جيرانهم والاشتغال بالربا والاستغلال وتجارة الأسلحة وإثارة الفتن والحروب بين القبائل العربية هنا وهناك، وهذا لا مكانَ له فى ظل الإسلام·

ثم عملوا على محاربته خُفيةً فى البداية حتى ظهرت أحقادهم بعد انتصاره فى غزوة "بدر" على كفار قريش، فراحوا يسخرون من الرسول، فقال له يهود بنى قينقاع: لا يغرنك يا محمد أنك لقيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصةً، إنَّا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس·

حتى إذا هُزم المسلمون فى غزوة " أُحُد " ظهرتْ شماتة اليهود، فقال يهود بنى النضير: ما أصيب بمثل هذا نبىٌّ قَط· وراحوا يُدبِّرون مؤامرة لاغتيال الرسول كشفها وحى الله لرسوله·

وتحالفَ يهود "بنى قريظة" مع الكفار فى غزوة الأحزاب، وأصبح المسلمون مُهدَّدين من الخارج بالكفار ومن اليهود من الداخل، لولا أنْ هبَّتْ ريحٌ عاتيةٌ اقتلعتْ خيامَ الكفار ففكُّوا الحصار عن المدينة·

وفى ذلك يقول تعالى:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

ولولا هذا لتعرَّض المسلمون لكارثة نتيجة غدر اليهود وخيانتهم، ولهذا كان الخلاصُ منهم ضرورةً لتأمين الدعوة الإسلامية.

لم تكنْ فتنة اليهود فى دار الإسلام وحدها، بل إن فتنتهم ممتدةٌ عَبْرَ التاريخ، وستستمر حتى يوم القيامة، فهذه هى طبيعتهم.

جهل.. المُنكرين

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

التسخير هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع أنْ يتخلَّفَ عنها، ولا اختيارَ له فى أنْ يُؤديها أو لا يؤديها، والكون أحد هذه المُسخَّرات التى سخَّرها اللهُ لخدمة الإنسان الذى خلق بعد خَلْق الكون مُختاراً.

يظن البعضُ أن الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيارٌ، والحقيقةُ غير ذلك، لأن الكائنات المُسخَّرة كان لها اختيارُها الذى حسمتْه فى بداية وجودها، فقد عرض اللهُ على خَلْقه الأمانةَ، أمانة الاختيار فاختارتْ الكائناتُ التسخيرَ، وفضَّلته عن الاختيار ما عدا الإنسان الذى قَبلَ الاختيار.

إذن: الكائنات المُسخَّرة كان لها اختيارٌ، ولم يقهرها اللهُ على التسخير، وإنما عرض عليها الاختيارَ، فقدّرت وقت الأداء ولم تُقدِّر وقت التحمُّل فقط كما فعل الإنسان.

وهو ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

فقد ظلم الإنسان نفسه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة، لأنه قدَّر وقت التحمُّل ولم يُقدِّر وقت الأداء، وهو جهولٌ لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل، ومع ذلك أعطاه اللهُ بعضَ التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعضاً من التسخير، وبعضاً من الاختيار.

ولذلك نجد بعض الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختيارَ له فيها، كأنْ يمرضَ أو تقعَ له حادثةٌ أو يُفلس، والذين يُنكرون وجودَ الله قومٌ اشتدَّ بهم الجهل، فلو تأمَّلوا كيف يعجزون عن أنْ يصدُّوا عن أنفسهم المرضَ أو الموتَ لَعلمُوا أن هناك قوةً أعلى وأقوى هي التي تتحكَّم.

خاصةً وأن منكرَ الله قد يُفاجأ بالشفاء، وأنه لا يظن أنه سيُشْفَى من خلال المُعطيات التي أمامه، إلا أنهم لا يلتفتون لذلك لمَا في قلوبهم من عمىً، حيث يقول الله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة]

كما حكى القرآنُ على ألسنتهم قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة]

سورة سبأ

سُورَةُ سَبأ

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ.. وَرَبٌّ غفُور

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ
وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ
وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ
وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ]

سبأ عَلَمٌ على رجل اسمه عمرو بن عامر، وكان له عشرة أولاد، وكوّنَ كل واحد منهم قبيلة كبيرة، ستة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن، وأربعة ذهبوا إلى الشام، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا في خيرها الوفير.

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره.. كانوا يتيهون بالسد الذي يحفظ لهم مياه الأمطار.. ويمدُّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونَسُوا اللهَ الذي علَّمهم، فكان هذا السَّد هو النكبة أو الكارثة التي أهلكت زرعهم.

ومسكن سبأ باليمن آيةٌ دالةٌ على قدرة الله، حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ؛ ليأكل أهلُ سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله، وكان

لهم سدّ مأرب، ووهبهم الله القدرة لبنائه، فقطعوا من الجبال التي ليس لهم عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء.

كل شيء إذن فعلوه، وإنما فعلوه لأن الله قد أراده، وهم أعرضوا عن أمرين: عن الرزق الوفير الذي منحهم اللهُ إياه، وأرادوا أنْ يعتمدوا على أنفسهم.

ظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم، وكذلك لم يشكروا الله، ولذلك أرسل اللهُ عليهم سَيْلَ العَرِم، أي: أنه عقابٌ من جنس العمل، وهكذا تكون عاقبةُ الإعراض والكفر بنعم الله، فقد سلّط اللهُ عليهم حيواناً من أضعف الحيوانات وأحقرها، وهو الفأر، فنقب السدّ فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم.

ثم يوضح الحق سبحانه ماهية الآية التي كانت لسبأ في مسكنهم، فيقول تعالى: ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] وما دام الله تعالى وصف هاتين الجنتين بأنهما آية، فلا بد أن فيهما عجائبَ، وأنهما يختلفان عن الجِنان التي نعرفها.

وقد حدَّثنا العلماء عن هذه العجائب فقالوا عن هاتين الجنتين: لا تجد فيهما عقرباً، ولا حيَّة، ولا ذباباً، ولا برغوثاً.. الخ، فإنْ طرأ عليهما طاريء وفي جسمه قمل فإنه يموت بمجرد أنْ يدخل إحدى هاتين الجنتين.

وهي جِنانٌ موصولة عن اليمين وجنان موصولة عن الشمال، وصلا لا يُميّز بسور ولا حائط.

ويقول تعالى: ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ ﴾ [سبأ] فالبلدة الطيبة تعطيك طيب الأشياء بدون مُنغِّصات فيها، لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنأ به، لكنها تتعبك وتنغصّك فيما بعد.

أما هذه البلدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً، لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد، لكن حين يتدخَّل العباد في عطاء الله تظهر في النِّعم متاعب ومُنغِّصات.

وهذا ما نعاني منه الآن بسبب التدخل في المزروعات بالمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية التي أفسدتْ علينا حياتنا، وجاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخُّلنا في عطاء الله، ولو تركنا الأرض تُروى بماء السماء كما كان في البداية لَذُقْنا الخير بلا مُنغِّصات، فمن الضروري أنْ نتأدب مع الله في عطائه.

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمثقفين وأهل العلم والفلاسفة يحبون الخروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائها ومياهها وما فيها من صخب، ويخرجون إلى الريف أو البراري، يهربون من الآثار الضارة للحضارة الحديثة إلى الخلاء، حيث يعيش راعي الأغنام، حيث الطبيعة كما خلقها الله، وحيث الفطرة السليمة التي لم يتدخل فيها البشر.

وسبأ كانت بلدة طيبة، بكل ما فيها من طيب الماء والهواء والتربة بما يُصبها تلوث من أي نوع، وإذا كانت البلدة نفسها طيبة، فما بالك بما عليها؟

ولكنهم أعرضوا، وكان أول إعراضهم أنهم لم يشكروا الله على هذه النعم، فالنعم أترفتهم فنسوا شُكرها، فلا بأس في أنْ تتنعم، لكن المصيبة أنْ تُطغيك النعمةُ وتغرّك.

وأول طغيان بالنعمة أنْ تنسبها إلى نفسك فتقول: بمجهودي وشطارتي. كالذي قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] ثم أنْ تنسى المُنعمَ، فلا تشكره على النعمة.

﴿ فَأَعۡرَضُوا ﴾ كلمة الإعراض تعطي شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان، لأن الإعراض أنْ تتصرف عن مُحدِّثك وتعطيه جانبك كما تقول لمن لا يعجبك حديثه (اعطني عرض كتافك).

فالإعراض تَرْك متعمد بلا مبالاة، أما السهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم فهذه كلها أمور مُعْفَى عنها، قد رفعها الله عنَّا رحمة بنا، فربُّك عز وجلَّ لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الفعل.

فماذا كانت نتيجة الإعراض؟ يقول تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ.. ﴿١٦﴾ ﴾ أي: انهار سَدُّ العَرِمِ فسَال ماؤه فأغرقهم، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، لكن إذا أراد الله سبحانه أنْ يجعله وسيلة هلاك أهلك، وبه أهلك الله قوم نوح، وبه أهلك فرعونَ وجنوده، وهذا من طلاقة قدرة الله، حيث يوجه الشيء للحياة فيحيي، وللهلاك فيُهلك.

سورة فاطر

سُورَةُ فَاطِر

إمْسَاكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذي يحفظ السماوات والأرضَ في توازن عجيب ومُذهل، ولئن قُدِّرَ لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحدٌ بعد الله، أي: لا يستطيع أحدٌ إمساكهما فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار، وإذا أراد اللهُ أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يُمسكهما ويمنعهما من الزوال.

وقد أوجد الحقُّ سبحانه قوانينَ الجاذبية لتمارسَ السماواتُ والأرضُ أعمالها ويحفظهما بقدرته من الزوال، وجعل من الجاذبية نظاما بديعاً يحفظ الكونَ من الاختلال.

هذا الكونُ العظيم بسمائه وأرضه، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائمٌ بقيُّومية الله تعالى عليه، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

فلا تظن أن الكونَ قائمٌ على قانون يُديره، بل على القيُّومية القائمة على كلِّ أمر من أمور الكون، والحقُّ -تبارك وتعالى- لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم. فما دام الأمر كذلك، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا، وما بين ذلك، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل، وبه يقوم الكون.

والإنسان يخاف من أنْ تندكّ السماءُ فوقه؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] فلن نغفلَ عن السماء من فوقكم، وسوف نُمسكها بأيدينا.

ثم يُعطينا الحق -تبارك وتعالى- الدليل الحسيّ على هذه الآية، وكيف أن اللهَ تعالى رفع السماءَ فوقنا بلا عَمَد، ومثالُ ذلك الطير يُمسكه اللهُ في السماء: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك]

نعلم أن الطيرَ يطيرُ في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط، كالسبَّاح الذي يدفع بذراعيه الماءَ ليسبح، فإذا

ما قبض الطائرُ جناحيْه ومع ذلك يظل مُعلّقاً في السماء لا يسقط، فمَنْ يُمسِكه في هذه الحالة؟

هذه صورةٌ تشاهدونها لا يشكّ فيها أحدٌ، فإذا قلتُ لكم إني أمسك السماءَ أنْ تقعَ على الأرض فصدّقوا وآمنوا، واستدلوا على الغيب بالمُشاهد.

وكأن الحق سبحانه في قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] يقول: اطمئنوا إلى السماء من فوقكم، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التي تُؤمِّن معيشتكم تحت سقفها، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفي رعايتنا.

لكن، ما المراد بقوله ﴿ عَنِ ٱلۡخَلۡقِ ﴾ أهو الإنسان أم خَلْق السماء؟ المراد: ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء، فبنيناها على ترتيبات ونُظُم تحميكم وتضمن سلامتكم.

سورة يس

سُورَة يَس

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

كان العربُ قديماً يظنُّون أن الليلَ هو الذي سبق النهارَ في الخَلْق؛ لأنهم كانوا يُؤرّخون الشهورَ بالقمر؛ فيدخل الشهرُ بليله لا بنهاره، ونحن نعلم أن رمضانَ يأتينا بأول ليلة فيه.

وقد أوضح الحقُّ سبحانه لهم على قَدْر معارفهم، ثم ثبتَ لنا أن الليلض والنهار قد وُجِدا في وقت واحد بعد أنْ وضحتْ لنا أن صورةَ الأرض كروية وأنه سبحانه قد خلقها كذلك، فما واجه الشمسَ كان نهاراً، وما غابتْ عنه الشمسُ كان ليلاً، ويخلف كلٌّ منهما الآخرَ.

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان في آنٍ واحد.

والليل: غياب الشمس عن نصف الكرة الأرضية، والنهارُ مواجهة الشمس للنصف الآخر، والليل والنهار مُتعاقبان.

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان]

يأتي الليلُ ثم يعقبه النهارُ، كُلٌّ منهما خَلْفَ الآخر، وهذه المسألة واضحة لنا الآن، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله تعالى الخَلْقَ الأول، فساعتها هل كانت الشمسُ مُواجهةً للأرض أم غائبة عنها؟

إنْ كان الحقُّ سبحانه خلق الشمسَ مُواجهةً للأرض، فالنهارهو الأول، ثم تغيب الشمس، ويأتي الليلُ ليخلف النهارَ، أما النهارُ فلم يُسبق بليْل، وكذلك كانت الشمسُ عند الخَلْق غير مواجهة للأرض، فالليل هو الأول، ولا يسبقه نهار، وفي كلتا الحالتين يكون أحدهما ليس خلْفة للآخر، ونحن نريد أنْ تصدُقَ الآيةُ على كليْهما.

إذن: لا بدَّ أنهما خِلْفةٌ منذ الخَلْق الأول؛ ذلك لأن الأرضَ كرويةٌ، والحق -تبارك وتعالى- حينما خلق الشمسَ والقمر الخَلقَ الأول كان المُواجهُ منها للشمس نهاراً، والمُواجهة منها للقمر ليلاً، ثم تدور حركة الكون، فيخلف أحدهما الآخرَ منذ البداية.

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قُلْنا بكروية الأرض، وهذه يُؤيِّدها قوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ [يس]

والمعنى أيضاً: ولا النهار سابق الليل، لكن ذكر الليلَ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الليل خُلِق أولاً، لماذا؟ لأن الزمنَ عندهم يثبتُ بليله، كما يحدث مثلاً في الصوم، فهل تصوم أولاً في النهار ثم ترى الهلالَ بالليل؟ إنما ترى الهلالَ بالليل أولاً، فكأنَّ رمضانَ يبدأ يومُه بليْله.

وما دام الأمرُ كذلك فالليلُ سابقُ النهار عندهم، وهذه قضيةٌ يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم، وجاء القرآنُ وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد: أنتم تعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار. يعني: النهار لا يسبق الليل، نعم لكن:

اعلموا أيضاً أن الليلَ لا يسبقُ النهارَ. إذن: المحصلة: لا الليلُ سابقُ النهار، ولا النهارُ سابقُ الليل.

ولو قلنا بأن الأرضَ مسطوحةٌ لَمَا استقامَ لنا هذا القول.

لكن أيّ ليل؟ وأيّ نهار؟ نهاري أنا، أم نهار المقابل لي؟ وكلُّ واحد على مليون من الثانية يُولد نهارٌ ويبدأ ليلٌ ؛ لأن الشمسَ حين تغيبُ عندي تشرق على آخرين، والظهر عندي يُوافقه عصرٌ أو مغربٌ أو عشاءٌ عند آخرين.

إذن: كلُّ الزمن فيه الزمنُ، وهذا الاختلافُ في المواقيت يعني أن نغمةَ الأذان (الله أكبر) شائعةٌ في كلِّ الزمن، فالله معبودٌ بكلِّ وقت، وفي كلِّ زمن، فأنت تقول: الله أكبر. وغيرُك يقول: أشهد أنْ لا إله إلا الله.. وهكذا.

وإنْ كان الحقُّ -تبارك وتعالى- خلق الليلَ للسُّبات وللراحة، والنهارَ للسَّعي والعمل، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضيةٌ غيرُ ثابتة، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة، فمن الناس مَنْ تقتضي طبيعةُ عمله أنْ يعملَ بالليل كالخبَّازين والحُرَّاس والمُمرِّضين.. الخ.

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذٌ لَقُلْنَا: إن هذا الكلامَ متناقضٌ مع كونيات الخَلْق.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم] فتُراعي هذه الآيةُ ظروفَ هؤلاء الذين يُضطرون للعمل ليلاً، وللراحة نهاراً.

وقولــــــــه تعــــــــالى: ﴿ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] يعني: يا مَنْ شغله نهارُ عمله عن ذكر ربه انتهِزْ فرصةَ الليل، ويا مَنْ شغله نومُ الليل عن ذِكْر ربه انتهِزْ فرصةَ النهار، وذلك كقولْ النبي ﷺ: ((إن الله يبسُطُ يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)).

فمَن فاته شيء في ليله فليتداركه في نهاره، ومَنْ فاته شيءٌ في نهاره فليتداركه في ليله، وإذا كان اللهُ تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار، وهما مُستمران، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوطةٌ دائماً.

ومعنى ﴿ يَذَّكَّرَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] يتمعنّ ويتأمل في آيات الله، في الليل وفي النهار، كأنه يريد أنْ يصطادَ لله نِعماً يشكره عليها، على خلاف الغافل الذي لا يلتفت إلى شيء من هذا، فمن فضل الله علينا أنْ يُنبِّهنا إلى هذه النِّعم، ويلفت نظرنا إليها لأننا أهلُ غفلة.

وقوله: ﴿ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] أي: شُكراً، فهي صيغة مبالغة في الشكر.

سورة الصافات

سُورَةُ الصَّافَّات

ضوابطُ العلم عند إلقاء السُّؤال

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات]

عادة ما يسأل مَنْ لا يعرف مَنْ يعرف، لكن أنْ يسأل مَنْ يعرف مَنْ لا يعرف فلا بُدَّ أن سؤاله يحمل دلالات غير المعرفة نفسها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات]

السؤال قد يقع من العالم ليعلم ما عند المسئول ويقر به، وليس ليعلم العالم ما عند المسئول، وعندما يقول ربنا: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] فلا يذهب ظنٌ أحد إلى أن الله يسأل لأنه لا يعلم، وإنما يسأل لتقروا بالحقيقة الدامغة لتكون حجة الإقرار أقوى من حجة الاختيار.

إذن: فإنْ رأينا شيئاً منفياً وأُثبتَ في مرة أخرى فلنعلم أن الجهةَ مُنفكة.

وحينما نتكلم عن إعجاز القرآن نجده يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول في الإسراء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء]

لكن فى الآية الثانية لم يقُلْ ذلك، بـل قـال ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ [الإسراء] كأنه يخاف أن يفقد ماله ويصير فقيراً عندما يأتى الولد، وما دام قد قال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فهذا يعنى أن الإملاقَ غيـرُ موجـود، ولكنه يخاف الإملاق إنْ جاء الولد، فأوضح اللهُ له: لا تخف فسيأتى الولد برزقه نحن نرزقهم وإياكم.

إذن: إنْ نظرتَ إلى الآيـة كلهـا عَجُـزاً وصـدراً تجـد العلاقـةَ مكتملةً وغيرها من الآيات التى تحتـاج إلـى معرفـة باللغـة لإدراك المعانى البعيدة.

من هنا يتضـح أن قولـه تعـالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] لا يعنى جهل السائل، لأن الهدف هو تذكير المذنب بذنبه الذى يذكره ولا ينساه وإقراره به فى مذلَّة وخضوع وخزى يزيد من عذابه.

جزاء الصبر على البلاء

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ.. ﴿١٠٢﴾ ﴾

[الصافات]

الصبر على القضاء سيظل مشقَّة على البشر مهما يكن التزامهم بهذا الصبر، لأن الإيمان بالقضاء والقدر صفة لازمة للمؤمن، حيث جاء فى حديث رسول الله ﷺ مُعرِّفاً الإيمان بقوله: ((أنْ تؤمنَ بـالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر حُلْوه ومُرِّه خيره وشره)).

لذلك كان على المسلم ألاَّ يجزعَ أو يسخط لمَا يقضى به الله، لأن الجزعَ يُطيل أمدَ القضاء على الإنسان، والله سبحانه وتعالى لا يرفع ما يبتلى به عبده المؤمن حتى يرضى به، فحينما ابتلى اللهُ سيدنا إبراهيم عليه السلام بأنْ يذبح ابنه فى رؤيا منامية.

فقد كان ابتلاءً شاقاً، حيث كان الأمر بأن يقومَ إبراهيم عليه السلام بنفسه بالذبح وهو فى سنِّه الكبيرة، ولابنه الوحيد الذى جاءه على كبَر، وكان الأمر يهونُ إذا تمَّ ذلك بيد شخص آخر، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقد ابنه.

لذلك كان وَصْف القرآن لسيدنا إبراهيم بأنه (أُمَّة) فقال تعالى: ﴿ إن إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] لأنه اجتمعتْ فيه صفات الإيمان لأمة كاملة.

وترى سلوك الأنبياء فى تنفيذ أوامر الله فى تصرُّف سيدنا إبراهيم، فلم يأخذ ابنه دون أن يُطلعه على الحقيقة، لأنه لو فعل ذلك فقد يُعرِّض ابنه لهاجس عقوق لأبيه، وفى الوقت نفسه أراد أنْ يشاركه ابنه فى الثواب بأنْ يكونَ مُنفِّذاً الأمر خضوعاً لمشيئة الله تبارك وتعالى.

فكان هذا الحوار: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ.. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات] فقال الابن: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ.. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

وهنا نجد خضوع الأب والابن لقضاء الله، فكانت النتيجة أنْ رُفع الابتلاء، حيث حقق المُبْتلَى نجاحاً كبيراً فى الاختبار، ولم يكُنْ جزاء الطاعة فداء ولد سيدنا إبراهيم الوجيه فقط، بل زاد الجزاء.

ففى سورة الصافات جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات]

ولم يُعطه الولد الذى يحفظ ذكره فقط، بل أعطاه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً كأخيه الذى انصاع لأمر السماء، فنجد الله سبحانه يشير إلى ذلك فى سورة الأنبياء فى قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

سورة ص

سُورَةُ ص

تَوَعُّدُ الشَّيْطَانِ لِبَنِي آدَمَ

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

أقسم الشيطانُ لله بعزته سبحانه عن خَلْقه، وكأنه قال: أنت يا ربِّ لو كنتَ تحتاج عباداً فأنا لا أستطيع أنْ آخذهم، لكن لأنك عزيزٌ عليهم، إنْ أرادوا أنْ يؤمنوا آمنوا، وإنْ أرادوا ألاَّ يؤمنوا لم يؤمنوا ؛ فهذا هو المدخل الذي سأدخل منه.

ولذلك استثنى الشيطانُ بعضاً من العباد، لأنه لن يستطيعَ أنْ يجدَ لوسوسته لديهم مدخلاً: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

أي: أن الذي يريد اللهُ أنْ يستخلصه لنفسه فلن يستطيعَ الشيطان أن يقترب منه. إذن فإبليسُ ليس داخلاً في معركة مع الله تعالى، ولكنه في معركة معنا نحن.

ولقد أوضح الحق ذلك حين جاء على لسان إبليس في القرآن: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

إذن: لو أراد اللهُ أنْ نكون طائعين جميعاً، أيستطيع واحدٌ أنْ يعصيَ؟ لا يستطيع. ولو أرادنا مؤمنين جميعاً، أيستطيع واحدٌ أنْ يكفر؟ لا يستطيع.

إنما شاء اللهُ تعالى لبعض الأمور والأفعال أنْ يتركها لاختيارك؛ لأنه يريد أنْ يعرف مَن الذي يأتيه طوعاً وليظل العبدُ بين الخوف والرجاء.

ولذلك يقول الرسول ﷺ: ((لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمعَ بجنته أحدٌ، ولو يعلم الكافرُ ما عند الله من الرحمة ما قَنطَ من جنته أحدٌ)).

فالشيطان حينما حدث الحوارُ بينه وبين خالقه، قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾، لكنه عرف حدوده ولزمها فقال بعدها: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

أي: أن مَنْ تريده أنت يا ربّ لا أقدر أنا عليه. وهذه تدلنا على أن المعركةَ ليستْ بين إبليسَ وبين الله، فتعالى اللهُ أنْ يدخلَ معه أحدٌ في معركة، بل المعركةُ بين إبليسَ وبين الخائبين من الخلق.

فعندما قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] دلّ على أنه عرف كيف يُقْسِم ويحلف؛ لأن ربنا لو أراد الناسَ كلَّهم مؤمنين لما قدرَ الشيطانُ أنْ يقربَ من أحد، لكن ربنا عزيزٌ عن خَلْقه، فمَنْ شاء فليؤمن ومنْ شاء فليكفر.

ومن هنا دخل الشيطان، فالشيطانُ قد دخل من عزّتك على خلقك سبحانك، لأنك لو كنتَ تُريدهم كلهم مؤمنين لَمَا استطاع الشيطانُ شيئاً، بدليل قوله:

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

أي: أنا لا أقدر عليهم. ودلّ قَسَم الشيطان أنه دارسٌ ومُنتبهٌ لمسألة دخوله على العباد، فقال: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن: فالشيطانُ لن يأتيَ على الصراط المُعوجّ؛ لأن الذي يسير على الصراط المعوج والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً؛ فهو مُريحٌ للشيطان، ويعينه على مهمته، فيكون وليّه. فأولياء الشيطان هم كلّ المخالفين للمنهج، وهم نُصراء الشيطان.

سورة الزمر

سُورَةُ الزُّمَر

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه الأذهان إلى أهمية الإخلاص لله تعالى، فجاء بهذا الحرف الدال على الاستفتاح (ألا)، وهذا الأسلوب يتبعه العربي في كلامه، لأن السامع ربما كان مشغولاً عن المتكلم فيفوته بعض الكلام، لذلك على المتكلم أن يُنبهه من غفلته، وأنْ يُهيئه لأنْ يسمع، لا سيما إن كان الكلام مهماً أة نفيساً لا ينبغي أنْ يفوتك منه شيءٌ.

لذلك قال سبحانه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

أما قوله: ﴿ لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] أي: له وحده، فقصرت إخلاص الدين على الله وحده دون غيره.

لكن، لماذا لله الدين الخالص؟ قالوا: لأن الدينَ شرعُ الله، هو الذي شرعه، وهو سبحانه الذي يُجازي عليه، فاحذر إذن أنْ يكون عملك بمنهج الله مقصوداً به غير الله، لأن غير الله لم يشرع لك، ولا يستطيع أنْ يعطيك أجر العمل.

فكأن الله تعالى يريد أنْ يُحصِّنَ حركةَ الإنسان في كلِّ شيء، بحيث تعود عليه كلُّ حركاته بالخير، لذلك دلَّه على الطريق الذي يؤدي به إلى الخير، وهو طريقُ إخلاص العبادة لله وحده.

ثم يذكر سبحانه مقابل إخلاص العبادة لله، فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ.. ۝ ﴾ [الزمر] قائلين ومُبررين موقفهم حين نبيِّن لهم كذبهم في عبادة ما دون الله، وحين تقول لهم: إن هذه الآلهة لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وحين تُضيق عليهم الخناق يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ.. ۝ ﴾ [الزمر]

فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها، وتكسَّرتْ منهم فعالجوها، ووقعتْ فأقاموها، وهم يروْنَ كم هي مَهينة بين أيديهم.

لدرجة أن أحدهم رأى الثعلبَ يبول برأس أحد الأصنام، فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها:

أَرَبٌّ يبـولُ الثَّعلَـبانُ برأْسِهِ   لَقدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَليْه الثَّعَالِبُ

فإذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا: إنها لا تضر ولا تنفع، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى، كيف والعبادةُ طاعةُ أمر واجتنابُ نهي.. فبأيِّ شيء أمرتكم الأصنام؟ وعن أيِّ شيء نهتْكُمْ؟!

إذن: كلامُكم كذبٌ في كذب.

فهذا حُمْق وسَفَه وجهل؛ لأن الكلام منطقياً لا يستقيم، كيف تقولون نعبدهم وليس لهم منهج، وليس لهم تكاليف، والعبادة طاعةُ عابد لمعبود؟ إذن: ما هو إلا خوَاءٌ وإفلاسٌ عقديّ.

إذن: فنادوهم ليُقرِّبوكم من الله، وليشفعوا لكم، والذي يقومُ بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ تكون له منزلةٌ عند الله يضمنها، وهل يضمن هؤلاء الشركاءُ منزلةَ عند الله؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

لذلك كذب الذين قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليستْ لها أوامرُ ولا نَواهٍ، فألوهيتهم (منظرية) بلا تكليف، فأولُ الأدلة على بُطلان عبادة هذه الآلهة المُدَّعاة أنها آلهةٌ بلا منهج.

وما هي العبادة؟ العبادة طاعةُ العابد لأمر المعبود ونَهْيه. إذن: بماذا أمرتْكُم هذه الآلهةُ؟ وعَمَّ نهتْكُم؟ ما المنهج الذي وضعتْه لكم؟ ماذا أعدَّتْ لمنْ أطاعها من النعيم؟ وماذا أعدتْ لمنْ عصاها من العذاب؟

لا شيء.. إلا أنها آلهةٌ بدون تكاليف، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليفَ له، لا يُقيدك فيما تُحب من شهوات، ولا يُحمّلك مشقةَ العبادة، وهنا يتضح عدمُ العقل.

وسيحكم الله بينهم فيما هم مختلفون، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] وكلمة الحكم لله كلمة ترهب، لأن حكم الله هو الحق الذي لا يُحابى أحداً، فالمؤمن حين يسمع ذه الكلمة يطمئن، لأنه سيأتي يوم لا يكون الحكم فيه إلا لله.

صفاتُ المؤمنين تتعدَّد ولَكنْ لاَ تعارضَ بينها

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر]

تتعدد صفاتُ المؤمنين فى القرآن الكريم، ومنها الوَجَل عندما يُذكر الله أمامهم، لكن منها أيضاً الاطمئنان عندما يأتى ذكرُ الله أمامهم، وبين هذه الصفات ترابطٌ لا ينفيه التعدد.

والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين فى سورة الأنفال قائلاً:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾ [الأنفال]

وفى سورة الرعد يأتى وَصفهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

والحقيقة أنه ليس هناك تعارضٌ بين القولين، لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة، فإنْ كان الإنسان مُسرفاً على نفسه فهو يرجف ويرتعد حين يذكر الله الذى خالف منهجه، وإنْ كان يُراعى حقَّ الله فى كل عمل قدْر الاستطاعة، فلا بُدَّ أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله لأنه اتبع منهجَ الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وبالتالى فإن الخوف أو الوَجَل إنما ينشأ من مهابة وسَطوة صفات الجلال والاطمئنان، إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال.

ولذلك نجد آية أخرى فى سورة الزمر تجمع الحالين فى قوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ.. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر]

فالجلود تقشعر خوفاً ووَجلاً ومهابةً من الله عزَّ وجلَّ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنَّان سبحانه وتعالى.

سورة غافر

سُورَةُ غَافِر

لِمَنْ المُلْكُ اليَوْم؟

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

عندما يُملِّك اللهُ بعضَ الخَلْق أسبابَ الخَلْق فهو القيومُ فوق الجميع، أما في الآخرة فلا أسبابَ ولا مُسبِّبات ؛ ولذلك يكون الأمرُ له وحده، اقرأوا جيداً: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إنّ في الدنيا أناساً –بإرادة الله– تملك أسباباً، وتملك عبيداً، وتملك سلطاناً ؛ لأن الدنيا هي دنيا الأسباب. أما في الآخرة فلا مجالَ لذلك. لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنَّةً منه، ورجعت مِنْهُ إليه ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

ومنْ يعتز بالسببية نقول له: كُنْ أسيرَ السببية لو كنت تستطيع. ومنْ يعتز بالقوة لأنها ظاهراً سببٌ للحركة، نقول له: احتفظْ بقوتك إنْ كنتَ قادراً.

ومنْ يعتز بالمُلْك نقول له: لتحتفظ بالمُلْك لو كنت تستطيع، ولا أحد بقادر على أنْ يحتفظ بأي شيء، فكلُّ شيء مردُّه إلى الله، وإنْ كان في ظاهر الأمر أن بعضَ الأشياء لك الآن، وفي الآخرة لله يكونُ كلُّ أمر، ويرجع إليه كلَ شيء، لقد بدأتَ به ورجعت إليه.

وقد يقول إنسانٌ: إن هناك أجزاءً من الأرض مِلكاً للبشر. ونقـول: صحيح أن في الأرض أجزاء هي مِلْكٌ للبشر، ولكن هناك فَرْقٌ بين أنْ يملكَ إنسانٌ ما لا يقدر على الاحتفاظ به.. كملك البيت والأرض، إنــه مِلْك –بكسر الميم– لمالك. وهناك (مُلْك)) –بضم الميم– لِمَلِكٍ هو الله.

وفي الدنيا نجد أن لكلِّ إنسان ملكيةً ما. ولكن المَلِك في الأرض يملك القرارَ في أملاك شعبه، وهذا في دنيا الأسلوب، أما في الآخرة فالأسبابُ كلها تمتنع: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر] فلا أحدَ له مُلكٌ يوم القيامة.

لأننا في دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعضَ الأحكام إلى بعض خَلْقه، فهذا يحكم، وذلك يتصرف، وآخر يُصدر قراراً بالتعيينات، وكلها أحكام، أما في الآخرة فالحق يقول: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر]

وأنت في الدنيا تملك، ويكون رزقُ ابنك –على سبيل المثال– من يدك، وتملك أنْ تصدرَ قراراً بترقية مَنْ هو أقلّ منك، وتملك أنْ تخيطَ الثوبَ لغيرك إنْ كانت تلك مهنتك.

ففي الدنيا كُلٌّ منّا يملك بعضاً من أسباب الآخر. أما في الآخرة فلا يوجد شيءٌ من هذا: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر]

وهل كان المُلْكُ يوماً لغير الله؟

في هذا المقام علينا أنْ ننتبه إلى أن فيه مِلْكاً، ويقال لصاحبه مالك، وفيه مُلك ويقال لصاحبه ملك. والملك ما تملكه؛ فقد تملك جلبابك الذي ترتديه. أما المُلْك فهو أن تملك مَنْ يَمْلك، فهذا اسمه مُلْك.

وربُنا سبحانه وتعالى في دنيا الأسباب جعل لكلٍّ واحد منَّا ملكاً، وجعل لبعض علينا مُلكاً فبقوْا ملوكاً، فقد تملك مثلاً أنْ تُوظِّفني عندك وتُعطيني أجراً، وقد تملك أنك تطبخ لي طعامي أو تُعطيني طعاماً، أو تملك أنك تخيط جلبابي، أما في الآخرة فلا يملك أحدٌ لأحد سبباً ؛ لأننا نحيا في الدنيا بالأسباب التي منحنا الله إياها، وفي الآخرة بالمُسبِّب وحده دون أسباب.

في هذا اليوم يوم التلاقي يأتون بارزين علانيةً بعد أنْ كانوا مُستترين بسيئاتهم في الدنيا، اليوم يُفتضح أمرهم ويُكشف سترهم ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

الجميع في ساحة واحدة: الملوك والسُّوقة، السادة والعبيد، الرؤساء والمرؤوسون، الجميع في مقام العبودية.

لذلك سينادي الحق سبحانه ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

يقولها الحق سبحانه لأنه تعالى كان يُملِّك بعضنا في الدنيا، أما في الآخرة فلا مُلْكَ إلا لله وحده، لذلك يُجيب على هذا السؤال المؤمن والكافر، الجميع يقولون ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

نعم لأنه لا إله غيره، ولا ملك سواه.

سورة فصلت

سورة فُصِّلتْ

اتساع الرزق بالجبال

﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ﴾ [فصلت]

القُوتُ هو ما ينتفع به الإنسانُ لاستبقاء حياته، وهو يُؤخذ من الزرع، والزرعُ ينمو دائماً فى الأرض الخصْبة، وخُصوبة الأرض تكون فى الوديان، والوادى هو المكان الذى يكون بين جبلين.

ولأن المطرَ حين ينزل من السماء إنما ينزل على الجبال، والجبال كما هو معروفٌ مُعرَّضة لعوامل تَعرية، فالحرارة تأتى بعد البرودة، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض التمدد، وما بين القَبض والبسط يحدث للجبال التشقُّق السطحى.

وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصيرَ جُسيمات ناعمة نُسمِّيها (الطمى) كالذى كان يأتى لنا من الحبشة وأحدثَ خصوبة وادى النيل.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ﴾ [فصلت]

إذن: فالجبال مخازن الأقوات، ومن فضل الله أنْ جعلَ الجبالَ صُلبة، فلو أنها كانتْ هشَّة من أول الأمر لكان سيلٌ واحدٌ من المطر كفيلاً بإزالتها كلها، ولجعل الجدب، ونعلم أن الله جعل مع التكاثر الإنسانى تكاثراً لأسباب القوت.

ومن ذلك أن للجبال قمةً، ولها قاعدة، وبين كلِّ جبل وجبل يُوجد الوادى الذى يكون ضيقُه فى أدناه، واتساعُ الوادى يكون فى أعلاه، والجبل عكس الوادى، فضيقُ الجبل يكون فى القمة واتساعه يكون فى القاعدة.

وعندما ينزل الطَّمْىُ الوادى يكون فى أعلاه، والجبل عكس الوادى، فضيقُ الجبل يكون فى القاعدة، وعندما ينزل الطَّمْىُ إلى الوادى بواسطة المطر يرتفع الوادى فتتسع مساحته.

وهذا طريقٌ من طُرق اتساع الرزق، فَضلاً عمَّا يُستخرج من باطن الأرض من خيرات تظهر على فترات من الزمن وغيرها مما يستجد من خير ويكتشفه الإنسان.

التأثير القُرآنى

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

لم يأت القرآنُ ليُعلِّمنا أسرارَ الكون، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحةً، وأسرار الوجود مكتنزة إلى أن تتقدم الحضارات، ويتسع فَهْم

العقل البشري، فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثرَ فَهْماً لعطاءات القرآن لأسرار الوجود.

فكلما تقدَّم الزمن وكشف اللهُ للإنسان عن سرٍّ جديد فى الكون ظهر إعجازٌ فى القرآن، لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى هذه الآيات الكونية فى كتابه العزيز، وقد تكون الإشارة إلى آية واحدة أو بضع آيات، ولكن هذه الآيات أو الآية تُعطينا إعجازاً لا يستطيع العلمُ أنْ يصلَ إلى دقَّته.

وقد حمل القرآنُ وقت نزوله معجزات تدلُّ على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى، وعن صدق رسالة رسول الله ﷺ، وكانت أول معجزة هى أن القرآنَ كلامُ الله، فيه من عطاء الله ما تُحبه النفسُ البشرية ويستميلها، لأنه يخاطب مَلكات خفيَّة فى النفس لا نعرفها، ولكن يعرفها اللهُ سبحانه وتعالى خالق الإنسان وهو أعلمُ به، هذه المَلَكات تنفعل حين تسمع القرآنَ الكريم، فتلين القلوبَ ويدخل الإيمانُ إليها.

ولقد تنبَّه الكفارُ إلى تأثير القرآن الكريم فى النفس البشرية تأثيراً لا يستطيع أنْ يُفسره أحدٌ، ولكنه يجذب النفسَ إلى طريق الإيمان، ويُدخل الرحمةَ فى القلوب، لذلك كان أئمةُ الكفر يخافون أكثرَ ما يخافون من سماع القرآن، ويحاولون منعَ ذلك بأيَّة وسيلة فيعتدون على منْ يتلو القرآنَ.

ولو أن هذا القرآنَ لم يكُنْ كلام الله الذى وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفيَّة فى النفس البشرية ما اهتمَّ أئمةُ الكفر أن يستمع أحدٌ للقرآن أو لا يستمع.

ولكن شعورهم بما يفعله كلامُ الله جعلهم لا يمنعون سماعَ القرآن فقط، بل كانوا يأمرون الناسَ بالشوشرة عليه كما حكى القرآن فى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت] ولا يمكن أنْ يكونَ هذا المسلكُ إلا خَوْفاً ممَّا يفعله القرآنُ فى كَسْب النفس البشرية إلى الإيمان.

الحق القرآنى

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ.. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

للقرآن الكريم عطاءان فى الإعجاز:

العطاء الأول: آيات فى الآفاق. و**العطاء الثانى** فى النفس الإنسانية، وهو ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ.. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. والحق فى الآية هو القرآن الكريم الذي ستتأكد حقيقته مما يجده الكافرون فيه موافقاً لمل سيظهر من حقائق كونية وآيات أنه من عند الله خالق الكون، وقوله ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ يتعلق بالآيات التى ستظهر فى الجسم الإنسانى ويتناولها القرآن الكريم.

ولقد أعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون للمؤمنين فبرع المسلمين الأوائل فى العلوم، ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون لغير المؤمنين مما نشهده الآن من نهضة علمية فى دول الغرب·

وذلك يُفسِّر قوله تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]، أي: أن آيات الكون ستجعل المنكرين للقرآن الكريم يعترفون أنه الحق، لأن المؤمن يعرف أن القرآنَ هو الحق ولكن المفكر الإسلامى يكشف الله له آيةً فى أمر معجز·

وقد حدث ذلك كثيراً فى مؤتمرات للإعجاز العلمى للقرآن الكريم، وأعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الإسلامى·· فالعلماء عندما يتأملون حديث القرآن عن: أعماق البحار، ومراحل تكوين الجنين، ومراكز الأعصاب فى الجسد البشرى، وتكوين الأذن والعين، وغير ذلك من إعجاز لا يمكن أن يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالقه·

وهذا ما شهد به علماء نبغوا فى علومهم، لأن القرآن حين يتحدَّى فإنه لا يمكن أنْ يأتى بمعجزة لا يعرف عنها الخالقُ شيئاً، فالإنسان لا يتحدَّى كسيحاً مثلاً فى سرعة المشى، أو ضعيفاً فى حمل الأثقال، ولكنه حين يتحدى فلا بد أن يتحدى مجموعة من الناس فيما تفوَّقوا فيه·

لذلك إذا قلنا: إن القرآن جاء يتحدَّى العرب فى إعجاز الأسلوب واللغة فهذه شهادة للعرب أنهم نبغوا فى دُنيا الكلمة، وعندما يغلبهم القرآن ويُعجزهم يكون هذا هو التحدِّى، أما غير العرب فقد تحدَّاهم فى آيات الكون والخلق·

فمثلاً قول الله سبحانه وتعالى عن أصحاب النار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

فعندما يثبت العلم الحديث أن مراكز الأعصاب تحت الجلد مباشرة، بحيث إذا احترق الجلد ضاع الإحساس بالألم، وهذا سرٌ تجديد الجلد للكافرين كلما احترق حتى يستمر فى ذَوْق العذاب.

والرسول لم يكُنْ يعلم هذه الحقيقة العلمية، لكن اللهَ خالق الخَلق هو أعلم به، فعندما يُفاجأ ملحدٌ بهذه الآية فى القرآن يدرك أن القرآن هو الحق.

المُعْجِزَةُ البَاقِيَةُ

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

[فصلت]

يُخطيء مَنْ يعتقد أن الإسلامَ يتعارضُ مع الديانات السابقة عليه، وأن كتابة القرآن الكريم تتناقض مع ما جاء فى الكتب السابقة أيضاً، فالقرآن يُضيف على تلك الكتب ويُصحح ما غُيِّر أو ما حُذِف منها، لأنه مُوحَى به من الله.

فالتوراة، والإنجيل، والزبور من الله، ولكنها تحمل المنهج فقط، أما القرآنُ الكريمُ فهو المنهج والمعجزة الدَّالة على صدق رسول الله ﷺ.

التوراةُ كانت منهجَ موسى عليه السلام وكانت معجزته العصا، والإنجيل منهج عيسى عليه السلام ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

إذن: بالنسبة للرسل السابقين كانت المعجزةُ شيئاً والمنهجُ شيئاً آخر، ولكن القرآنَ تميَّز بأنه المنهجُ والمعجزة معاً، ذلك أن المناهج التى أرسلها اللهُ على الرسل السابقين أنزلها على نيَّة تغييرها.

لكن القرآنَ الكريمَ نزل على نيَّة الثبات. أى: يوم القيامة، ولذلك كان لا بُدَّ أنْ يُؤيدَ المنهجَ بالمعجزة، حتى يستطيعَ أىُّ واحد من أتباع محمد ﷺ أن يقول: محمد رسول الله وتلك معجزته.

ولكن معجزات الرسل السابقين حدثتْ وانتهتْ لأنها معجزةٌ حِسيَّة مَنْ رآها آمنَ بها، ومَنْ لم يرَهَا فهو غيرُ مقصودٍ بها، لأنها حدثتْ لتثبيت المؤمنين الذين يتبعون الرسولَ.

فمعجزةُ عيسى عليه السلام لا يمكن أنْ تعود الآن من جديد، وعصا موسى التى شَقَّتْ البحر لا يستطيع أتباع موسى أنْ يأتوا بها الآن ليقولوا: هذه معجزته.

أما فى رسالة محمد ﷺ فالمعجزةُ موجودةٌ مع المنهج، وهو القرآن الكريم يمكن ملاحظتها فى أىٍّ وقت.

ونظرةٌ واحدةٌ فيما قال الله سبحانه وتعالى فى كونِيَّات الحياة التى أتيحت للعقل البشرى فى القرن العشرين نجد أن القرآنَ الكريمَ يشير إليها، وسوف يستمر العقلُ البشرىُّ كلما اكتنف مجهولاً من مَكْنونات الكون يجد ما يؤكده ويشير إليه فى القرآن.

وهو ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

[فصلت]

سورة الشورى

سُورَةُ الشُّورَى

حَظُّ الإنسَان

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

إن حَظَّ الإنسان من دنياه عَرَضٌ زائلٌ، فإما أنْ يموتَ الإنسانُ فيترك ما لديه، وإما أنْ يفوتَ هذا العَرَضُ الإنسانَ بما يجرى من أحداث، أما ما عند الله فهو بَاقٍ لا نفادَ له.

يقول الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ولا شكَّ أن التعقيبَ على تقرير حقيقة زوال أعراض الدنيا وبقاء ما عند الله بقوله: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل] يشير إلى أن الإنسان سيتعرَّض لهزَّات نفسية نتيجة ما سيقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه، حينما يلوح له بريقُ المال وتتحرَّك بين جنباته شهواتُ النفس، وهو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

وقد صورَّ رسول الله ﷺ متاعَ الدنيا مهما كَثُرَ بأنه أقلُّ من جناح بعوضة، ولو كان كجناح بعوضة لَمَا نال الكافرُ منها شيئاً.

فإذا تأملنا وَصْفَ الله تعالى للذُّباب أو الكائنات الدقيقة بالضَّعف والهوان في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

ندرك مدى هوانَ الدنيا ومُتعها ومدى ضَعف الإنسان أمام قدرة الخالق العظيم الذي مَنَّ عليه وأعطاه واستبقى له الخالدَ على الفَاني من نعيم، إنْ هو سارَ بمنهج الخالق العظيم.

كما يكون الاختيارُ واضحاً فيما بين الدنيا والآخرة، ويكون كل إنسان مُدْركاً للنتيجة، وهو ما نلمحُه أيضاً في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

هَديَّةٌ لصَاحب الغَيْبَةِ

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشورى]

من أريحية الإسلام أنه تعامل مع النفوس البشرية بما يتناسب مع طبائعها المختلفة والمتباينة، ومن هنا جاءت أحكامه وقواعده التى تنظم الحياة الإنسانية فى درجات تباين النفوس واختلافها، ولكل درجة ما يقابلها عند الله لذلك نجد كثيراً من الآيات تناقش ذلك، كما فى قوله تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ ﴾ [الشورى]

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ ﴾ [الشورى] فالإنسان له أن يطالب بحقه ممَّنْ أساء إليه على أن يأخذ ما يساوى ما أخذ منه لا زيادةَ عليه، وهناك من يترك حقَّه لله ينتصر له ممَّنْ ظلمه، وهناك مَنْ يعفو ويسامح، ويحسن إلى مَنْ أساء إليه.

ودرجات العفو هذه تناولها قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران] وقد قال العارفون بالله: إن الذى يعفو أزكى فَهْماً ممَّن سيعاقب لأن الذي يعاقب إنما يعاقب بقوته، والذى يعفو يترك العقابَ لقوة الله تعالى وهى قوة لا متناهية..

وقد سُئل الحسن البصرى: كيف يُحسن الإنسان إلى مَنْ أساء إليه؟

فقال: إذا أساء إليك عبدٌ، ألاَ يغضب ذلك ربه منه؟

قالوا: نعم.

قال: وحين يغضب اللهُ من الذي أساء إليك ألا يقف إلى جانبك؟ أفلا تحسن إلى مَنْ جعل الله يقف إلى جانبك؟

كما يُروَى أن أحد الصالحين سمع بشخص يغتابه فأرسل الرجل الصالح بهدية إلى الذى يغتابه، وقال حامل الهدية: بلِّغه شُكْرى لأنه تصدَّق علىَّ بحسناته عندما اغتابنى، وحسناته –بلا شكٍّ– أنفس من هذه الرُّطَب.

الإيمانُ بالغيْب ضَرورة

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

[الشورى]

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أنْ يعطىَ منهجه لرسله بالوحى، ويكون ذلك غيباً لأن الله غيبٌ.

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبلَ من الله مباشرة، والوحى إعلامٌ بخفاء لا يفهمه أحد إلا المُوحِي ومَنْ يُوحى إليه، والوحي ما دام إعلاماً بخفاء فإنه يقتضى مُوحياً ومُوحَى إليه ومُوحَى به.

وقد أوحى الله للرسل وأوحى إلى غير الرسل فأوحى للملائكة، وإلى أم موسى وإلى الحواريين وللنحل وللأرض، وهناك وَحْىٌ من الشيطان لأوليائه وهذا هو الوحى اللغوى.

أما الوحى الشرعى فيكون وَحْياً من الله لرسله، وكان وحى الله لموسى عليه السلام أنْ كلَّمه من وراء حجاب، وكان وَحْيه إلى رسوله الكريم ومحمد صلواتُ الله وسلامُه عليه بأنْ أرسلَ له جبريلَ عليه السلام.

ويجيء المَلَك بالوحى فيسمع رسول الله ﷺ صلصلة تُنبِّهه، ويتم اللقاءُ بين جبريل والرسول فتتغيَّر كيماوياتُ جسد الرسول، حتى أنه حينما جاءه الوحى لامستْ ركبتُه الشريفةُ ركبةَ صحابى كان يجلس بجواره فأحسَّ كأنها جبلٌ، وكان إذا أتاه الوحيُ وهو راكبٌ دابته بركتْ الدابة من ثقل ما تشعر به.

لذلك فإن مَنْ يدَّعى رؤيةَ الله سبحانه وتعالى فهو يفترى عليه الكذب مهما وصلتْ منزلته، وقد أنكرتْ السيدةُ عائشة على مَنْ قال إن الرسول الكريم رأى اللهَ ليلةَ الإسراء والمعراج وقالت إنه رأى نوره، لأنه لا يستطيع أحدٌ فى تكوينه البشرى أن يرى الله.

وقد سأل موسى عليه السلام ربَّه أنْ يتجلَّى له ليراه، فقال له كما حكى القرآن: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا.. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

سورة الزخرف

سُورَة الزُّخْرُف

التَّقسيمُ الربَّانى للناس.. رحمةٌ

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[الزخرف]

يتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبةَ والنُّصْرةَ طبقاً للتعاقد الإيمانى بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج، وينْهى بعضُهم بعضاً عن المحظورات التى حرَّمها الله، ويتواصلون مع الله بإقامة الصلاة، ويُؤدُّون حقَّ الله فى مالهم بالزكاة، ويطيعون اللهَ ويمتثلون أوامر رسوله.

وهم بذلك ينالون وعدَ الله الحق والرجمة، وهو سبحانه القادر على رعايتهم، وهو حكيم فى صيانتهم، عزيزٌ لا يغلبه أحدٌ.

إذن: ما لإنسان يطلب الولى لحظة الضعف ولحظة الشدة، ولا يوجد إنسانٌ استوتْ له كلُّ زوايا الحياة، فيصير قوياً لا يضعف أبداً، أو يصير غنياً لا يفتقر أبداً.

ونعلم أن الإنسان من الأغيار فلم نَرَ قوياً تثبتُ له قوته، ولا غنياً ثبتَ له ثراؤه، فالإنسان ابن الأغيار وتأتى له حالات فوق قدرته، لذلك فهو يسأل عمَّنْ يُعينه ويساعده، والمؤمن يحب أيضاً أن يكون قوياً ليساعد غيره لأن الله تعالى قد وزَّع المواهب على خَلْقه فى الكون ليضمن بقاءَ الولاية واستمراريتها.

فأىُّ إنسان فى احتياج إلى عمل إنسان آخر لأنه ضعيفٌ من ناحية وغير قوىّ فيها، فالطبيب يحتاج إلى المهندس، والمهندس يحتاج إلى الطبيب، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامى.

وهكذا وزَّع اللهُ المواهبَ فى الكون، ولم يجعل من إنسان مَجْمعاً لكلٍّ المواهب، وذلك حتى يتساندَ المجتمعُ لا بالتفضُّل والتكرُّم، بل بتساند الحاجة، فكل إنسان هو سيد فى زاوية ما من زوايا الحياة، وبقية الزوايا يسودها غيره من البشر، ولذلك يقول الله سبحانه·

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

هذا هو الإعلان من الله تعالى بأنه وزَّع المواهبَ بين البشر ليتساندوا ويسخر بعضهم بعضاً فى قضاء حوائج بعضهم بعضا لتنظيم أمور الحياة، وفى هذا التقسيم رحمةٌ من الله بالخَلْق، فلو تساوَى الناسُ فى الذكاء وعُلو المهنة، فمَنْ الذى سيقوم بالأعمال البسيطة التى تُعتبر ضرورةً من ضرورات الحياة مثل تنظيف الشوارع وحَمْل القمامة وهكذا·

وهذا مصداقُ قول الشاعر:

النَّاسُ للنَّاسِ منْ بَدْوٍ وَحَاضـ [illegible] ـضٍ وإنْ لم يشعروا خَدَمُ

سورة الدخان

سُورَةُ الدُّخَان

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

والحقُّ سبحانه وتعالى يقول للكافر الذي كان يعتزُّ بجاهه في دنياه:
﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

فهل هذا القولُ اعترافٌ بأن الكافرَ عزيزٌ كريمٌ؟ أو هو قولٌ تهكمي؟ إنه تهكمٌ لأن الكافرَ لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لَمَا كفر ولمَا استقرَّ في الجحيم.

أي: ذُقْ الإهانةَ والمذلَّةَ لا ممَّا يُطعم أو ممَّا يُشرب، ولكن بالإحساس؛ لأن ذَوْقَ الطعام هو الحاسَّةُ الظاهرةُ في الإنسان؛ قد يجده بالذَّوْق حَريفاً، أو حُلْواً، أو خشناً، أو ناعماً إلى غير ذلك.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة]

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ تعرف أن البشارةَ عادةً تكونُ في خبر سَارٍّ، وإنْ جاءتْ في خبر مُحزن تكون تهكمًا، فالإنسانُ الذي هو عزيزُ قومه ويجعل الناسُ له اعتباراً، إنْ ظلم وطغى وخاف الناس أنْ يردُّوه؛ لأنه لا يخشى اللهَ فيهم، هذا الظالمُ يُؤتَى به يوم القيامة ويُعذَّب أشدَّ العذاب، ويُقال له: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

وبطبيعة الموقف في النار هو مُهانٌ بعذاب جهنم، ولا يمكن أنْ يكونَ عزيزاً كريماً، ولكن قَولُ ملائكة النار: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]، هو تهكُّم شديد.

وهو في ذلك كقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

وهم ساعةَ يسمعون كلمة ﴿ يُغَاثُوا ﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديدٌ، وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيُغاثون، وهذا خبر سَارٌّ بالنسبة لهم، ولكن الإغاثةَ تأتيهم بماء يشوي وجوههم، فهل هذه إغاثة؟ إنه تهكُّم عليهم وزيادةٌ في عذابهم.

سورة الجاثية

سُورَةُ الجَاثِيةِ

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية]

لقد حاول الكفارُ والمُلحدون وأصحابُ الفلسفة المادية أنْ ينكروا قضية البعث، وهم في هذا لم يأتوا بجديد، بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى.

واقرأ قوله تعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ.. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية]

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه ألاَّ يكونَ هناك بعثٌ أو حسابٌ، والذين يتعجَّبون من ذلك نقولُ لهم: إن اللهَ سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم يستطيع أنْ يعيدكم وقد كنتم موجودين.

يقول جلَّ جلاله:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]

فإيجادُ ما كان موجوداً أسهلُ من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود، والله سبحانه وتعالى يردُّ على الكفار، فيقول سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]

وهكذا فإن البعثَ أهونُ على الله من بداية الخلق، وكلٌّ شيء مكتوبٌ عند الله سبحانه وتعالى في كتاب مبين، وما أخذتْه الأرضُ من جسد الإنسان تردُّه يومَ القيامة ليعودَ من جديد.

وإذا كان الإنسانُ لا يؤمنُ بالبعث؛ فهو لا يؤمنُ بلقاء الله سبحانه؛ لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمنُ بلقاء الله، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذي أنكروه، وسوف تكون المفاجأةُ صعبةً عليهم.

ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

السراب: هو أنْ يمشيَ الإنسانُ في خلاء الصحراء، ويُخيَّل إليه أن هناك ماءً أمامه، وكلّما مشى ظنَّ أن الماء أمامه، وما إنْ يصل إلى المكان يجد أن الماءَ قد تباعد.

وهذه العملية لها علاقةٌ بقضية انعكاس الضوء، فالضوءُ ينعكس ليصورَ الماء وهو ليس بماء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ.. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذي لم يكُنْ في باله، فهو واحدٌ من الذين لا يرجون لقاءَ الله.

وهو ممَّنْ جاء فيهم القول: ﴿ وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

رغم أن الكونَ الذي نراه يُحتِّم قضية البعث؛ لأننا نرى أن لكلِّ شيء دورةً، فالوردةُ الجميلةُ الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أنْ تفقدَ مائيَّتها، ويضيع منها اللون، ثم تصير تراباً. وأنت حين تشمُّ الوردة فهذا يعني أن ما فيها من عطر إنما يتبخَّر مع المياه التي تخرج منها بُخاراً، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك.

إذن: فللوردةُ دورةُ حياة، وأنت إنْ نظرتَ إلى أيِّ عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكميةَ الموجودة من الماء ساعةَ خلق اللهُ السموات والأرضَ هي بعينها لم تَزِدْ ولم تنقص، وكلُّ شيء تنتفع به له دورة، والدورةُ تُسلِّم لدورة أخرى، وأنت مستفيدٌ بين هذه الدورات، هَدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاءَ الله، ولا يؤمنون بالبعث، ولا بثواب أو عقاب لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه؛ لأن النظرَ في الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أنْ يؤمنوا بأنها دورةٌ من الممكن أنْ تعود.

سورة الأحقاف

سُورَةُ الأحْقَافِ

وَبِالوَالدَيْنِ إحْسَاناً

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ
إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ
فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ
﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف]

هذه الوصية مُوجَّهة من الحق سبحانه للناس كافة وللإنسان عامة، فتشمل المؤمن والكافر، والكبير المُكلَّف والطفل دون التكليف، فإنْ فعل بالوصية يُثاب عليها، وإنْ تركها لا يُعاقب.

والوالدان أي الأب والأم، وهما السبب المباشر للوجود، لأن هناك سبباً غير مباشر، وهو الوجود الأعلى الذي أوجد آدم وحواء، وهذا الوجود كان عن عدم، أما وجودنا نحن بالتناسل فكان عن سبب وهو الوالدان.

والتوصية بالوالدين وردتْ في القرآن في أربعة مواضع مقرونة بعبادة الله:

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا.. (٣٦) ﴾ [النساء]

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا.. (٨٣) ﴾ [البقرة]

﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ.. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا.. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

هذه أربعة مواضع يأمر فيها الحق سبحانه الأولاد بالإحسان إلى الوالدين، ويقرن هذا لأهميته بعبادة الله وكأنهما في الميزان سواء، لأن الوالدين كما ذكرنا هما سبب الوجود المباشر، وبرُّهما والإحسان إليهما تمهيدٌ وتدريبٌ يُذكِّركَ بالسبب الأعلى لوجودك، وهو الخالق سبحانه وتعالى.

وكلمة ﴿ إِحۡسَٰنٗاۖ ﴾ مصدر أحسنَ. والإحسان في الشرع أنْ تصنعَ من الخير والمعروف فوق ما فُرضَ عليك ومن جنس ما فُرضَ عليك، فالحق سبحانه يأمرنا ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما، لأن لهما فضلاً علينا في

الإيجاد وفي التربية وفي الإنفاق، فيجب أنْ نعطيهم أكثر مما يستحقون، وحين تعطي أكثر مما يجب عليك فأنت مُحسنٌ إليهما.

إذن: الأمر في بر الوالدين لا يتوقف عند الواجب الضروري، إنما يتعداه إلى مرتبة الإحسان.

لذلك فالحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن حقِّ الوالدين يقول: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فاحذر أنْ تقول لهما هذه الكلمة أو تتأفف منهما، خاصة حال كِبَرهِما عندما يتردَّان إلى أرذل العمر، ويكونان في أمسِّ الحاجة للحنان والرعاية.

ففي هذه السِّنِّ يعود الإنسانُ إلى الطفولة مرة أخرى، فيحتاج مَنْ يحمله ويُقعده ويؤكله، وربما حدث منه ما يدعو إلى التأذِّي، فإياك أنْ تتأذى منه في هذه الحالة.

ربما ارتعشتْ به قدماه فوقع على الأرض أو كسر فازة مثلاً، فاحذر أنْ تُظهر له ما يؤذيه، واعلم أنك مُثابٌ على هذا، وأنه مُدَّخرٌ لك ودَيْنٌ سيُؤدى، ومنْ بَرَّ والديْه برَّه أبناؤه.

ويكفي أنك حين تبره وتتحمل أذاه تفعل ذلك وأنت تتمنى موته، وقد فعل معك أكثر من هذا وكان يتمنى لك طول العمر.

ويـــذكر الحـــق ســـبحانه حيثيـــة الوصـــية بالوالـــدين الأم خاصـــة فيقـــــــــول: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا.. ﴾ [الأحقاف] أي: كارهة أو على مشقة.

والوهن أي الضعف نتيجة الحمل والولادة، أما الكراهية لهذه المسألة فتأتي من أن النساء لها طبائع مختلفة، فمنهنَّ مَنْ تحب هذه العملية، ومنهنَّ مَنْ تكرهها لكن تطيع زوجها وهي كارهة ثم تتحمل بعد ذلك مشاقّ الحمل والوحم ثم آلام الوضع.

وبعد الولادة تنشغل بالمولود وتحنو عليه، في حين ينشغل الوالد بالسعي وطلب الرزق، لذلك يغلب على الرجل العقلانية، وعلى المرأة العاطفة، كُلٌّ حسب مهمته في الحياة.

لذلك لمَّا أوصانا الحق سبحانه بالوالدين أتى بحيثيات الوصية بالأم، ولم يذكر شيئاً من حيثيات الوصية بالأب. قالوا: لأن دور الأم جاء في زمن ليس للطفل فيه إدراك يدرك به دور أمه وفضلها في مرحلة الحمل والولادة والرضاعة.

أما دور الأب من الإنفاق والرعاية فيـــأتي فـــي زمـــن الطفـــلُ فيـــه مدركٌ لجميل والده، فاهمٌ لدوره في تربيته والقيام علـــى أمـــره، لـــذلك احتاج الولد أنْ نُذكِّره بدور أمه وفضلها، لأنه غيـــر مـــدرك لـــه، أمـــا دور الوالد فهو يعرفه.

سورة محمد

سُورَةُ مُحمَّد

كُنُوز القُرْآن

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]

التدبر هو وسيلة الكشف عن المعانى الخفية خلف ظواهر الآيات.

والناس يتفاضلون فى تعرّضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى، لذلك نجد عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: ((أثيروا القرآنَ، فإنَّ فيه خبرَ الأولين والآخرين)) أى: قلبوا معانى الآيات لتجدوا ما فيها من الكنوز، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها فعجائب القرآن لا تنقضى.

يقول الله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]

ولأن الإسلام دين العقل والإقناع فقد وردتْ معانى التدبر فى آيات كثيرة وبألفاظ مختلفة كالتفكُّر، والتذكُّر والتعقُّل.

كما وصف القرآنُ الذين لا يقبلون الأدلة الدامغة ولا يعترفون بها بالجهل والغفلة والسَّفه والظلم، وغير ذلك من معان تشير إلى عدم إعمال العقل فيما يعرض القرآن على الإنسان من قضايا.

كما كان حوار الرسل مع أقوامهم يرتكز على العقل دائماً مُستخدماً الأدلةَ المادية لإثبات صحة دعوته.

ويحكى القرآنُ نموذجاً لمثل هذه الحوارات، منها ما حكاه عن سيدنا نوح مع قومه، يقول تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[هود]

والآيات تستخدم المنطق في كلِّ ما تعرض من قضايا، فنوحٌ لا يدعوهم إلى الله لأية منفعة شخصية تصل إليه من وراء هذه الدعوة، ولا يستطيع أنْ يطردَ الضعفاء الذين آمنوا به من حظيرة الإيمان، لأنهم أحقٌّ بما حصلوا عليه من إيمان، ويصح ظلم قوم لصالح آخرين، ولا يفعل ذلك إلا الجهلاء.

كما أن الجميع سيلقَى اللهَ يوم القيامة وسيحاسبه اللهُ، فالأوْلى عدم ظلم الناس في الدنيا إبقاءً للآخرة.

سورة الفتح

سُورَةُ الفَتْح

شَوْق المُسْلمينَ لبيتِ الله

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

[الفتح]

الحق سبحانه وتعالى يقصُّ علينا قصة شوق المسلمين للبيت بعد أن اغتربوا عن مكة مدة طويلة، واشتاقوا لأداء العمرة وللطواف بالبيت، ولكن حمية الجاهلية وطيشها وغرورها بقوتها الكاذبة حالت دونهم ودون ما يريدون.

والحق سبحانه حينما يتكلم في هذه المسألة يتكلم عنها على أنها رؤيا سبقت واقع القصة، والرؤيا كما تعلمون ما يراه النائمُ من أشياء، قد يكون لها واقع وقد لا يكون.

فكأن رسولَ الله قد رأى رُؤيا هي: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح]

وقد قصَّ رسول الله هذه الرؤيا على أصحابه فاطمأنوا إلى دخولهم مكة وأداء العمرة، لذلك لما منعهم سفهاء قريش من دخول مكة تعجبوا واعترضوا على منعهم من الدخول.

وسيدنا عمر رضي الله عنه يقول لسيدنا رسول الله: ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ قال: بلى. قال: فلمَ نعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟

صحيح هم على الحق، وجاؤوا على شوق للبيت، لكن إنْ دخلوا مكة غصباً ودون رضا أهلها ستقوم بينهم معركة، وقلنا أنها ستصيب جماعة من المسلمين في مكة لم يعلنوا عن إسلامهم.

لذلك قال الحق سبحانه بعدها: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح]

فالحق سبحانه أخبر نبيه بالرؤيا وصدَّقها في الواقع، لكن لم تحدث بعد، لأن الله يعلم من واقع الأمر ما لا تعلمون، لذلك أجَّل العمرة هذا العام وجعل الرسول يعقد معاهدة الصلح بينه وبين كفار مكة، على أنْ يؤدوا العمرة العام المقبل.

واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح] ولم يُحدَّد لها زمن، فلو قال قائل مثلاً: ألم تقُلْ أننا سنؤدي العمرة وندخل المسجد الحرام يقول له ليس بالضرورة هذا العام.

والمتأمل في ألفاظ الآية يجدها تدل على هذا المعنى، وأن العمرة لن تكون هذا العام، نفهم هذا من معاني الكلمات ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح]

فلو دخلتُم دون إذن قريش ورضاها لن يتحقق لكم هذا الأمن، فسوف يقاتلونكم ويعتدون عليكم، حتى لو سمحوا لكم فلن يتحملوا رؤيتكم وأنتم تطوفون بالبيت، وسوف تأخذكم حميَّة الجاهلية لا بدَّ.

ثم قال: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح]

وهذا أمنٌ آخر بعد أداء العمرة، لأن قريشاً كانت إذا دخل أحدٌ الحرمَ لنُسُك لا يتعرضون له لكن يعتدون عليه بعد أنْ يفرغ من نُسُكه، فقوله ﴿ لَا تَخَافُونَ ۖ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ دلَّ على أنهم آمنون في بداية العمرة وفي نهايتها، وهذا لا يتوفر لهم إلا إذا دخلوا برضا قريش وإذنها.

سورة الحجرات

سُورَةُ الحُجُرَات

سببُ الفسَادِ.. فى الكَوْن

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾ [الرحمن]

منذ أنْ خلق اللهُ الإنسانَ، وأراد له أنْ يكونَ خليفته فى الأرض يعبده وينفذ منهجه فيها من تعمير وإقامة عدل وقسط – والإنسان يصنع شقاءه بنفسه، ذلك لأن استقراء الفساد الحادث والذى يحدث فى الأرض ويسبب للإنسان من العنت والضَّنْك الكثيرَ، ويدفعه إلى البحث عن الوصول إلى ما يدفع به هذا الفساد.

من هذا الاستقراء نجد أن هذا الفساد لا يحدث إلا فى الأشياء التى للإنسان دَخْلٌ فيها، فلم نجد يوماً أن الشمس تأخرتْ عن ظهورها أو بكَّرتْ، أو أن القمر غيَّر نظامه الرتيب.

يقول الله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس]

وكذلك السماء لم يحدث فى يوم ما أنْ شاهدنا خَللاً بوظيفتها، لأن الله هو الذى رفعها وجبلها على وظيفتها، يقول تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾ [الرحمن]

ذلك كله لأن الإنسان لا دخلَ له في هذه الأمور، لذلك فإنها لا تختل أو تفسد، ولا يأتى الفسادُ فى الأمور التى يتدخَّل فيها الإنسان إلا إذا تصرَّف فيها بمنهج غير منهج الله سبحانه وتعالى فاتبع هواه وأضلَّه شيطانه.

أما إذا تدخَّل بمنهج الله فإن الأمورَ تستقيم كما أراد لها الله، كما تستقيم النواميسُ العليا تماماً ولا تفسد.

وما دام اللهُ سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ومنحه الاختيارَ، وبعضُ الناس اختار مذهباً والبعضُ الآخر اختار مذهباً مُضاداً، وكُلٌّ من المذهبيْن خارجٌ عن منهج الله سبحانه وتعالى، فيترك اللهُ الفئتين لأهوائهما تتصرفان، كما أرادتا لأنفسهما، فيكون الصراع والتناحر.

ولأن الله سبحانه وتعالى ذو رحمة على العالمين فإنه يُبقى عناصر الخير فى الوجود لعلَّ أحداً يلتفت إليها وينتبه فيأخذها ويُطبقها فى نفسه وعلى الآخرين، فعندما تطغى جماعةٌ يأتى لهم اللهُ سبحانه وتعالى بجماعة تردهم، حتى تبقى عناصرُ الخير.

وهو ما يشير إليه القرآنُ الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

والصوامع والبيع والصلوات والمساجد إشارة إلى علامات الخير، لأنه ما دام هناك ذكرُ الله وعباده له فإن عناصرَ الخير قائمةٌ إلى يوم القيامة، فإذا هُدمت عناصرُ الخير هذه، أو لم يَعُدْ فيها ذكرُ الله كما أراد لها، فإن الفسادَ يكون مُطلقاً.

معيارُ الإيمان

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا.. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

الإيمانُ بالله أمرٌ عَقَدىٌّ يعلن فيه الإنسانُ إيمانه بإله واحد موجود، ويلتزم بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ وهو اعتقاد القلب الجازم الذى لا يُداخله شَكٌّ بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل مما لا يراه الناس.

ومنْ آمنَ بالله واليوم الآخر ولم يعمل العملَ الصالح يُعاقب، لأن فائدة الإيمان إنما يتحقق بالعمل الصالح، لذلك نجد الله سبحانه وتعالى يقول لنا: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا.. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات] أى: اتبعتم ظاهر الإسلام.

ومن هنا نعرف أنه يُوجد متيقن بصحة واعتقاد أن الإله الواحد الأحد موجودٌ، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله عزَّ وجلَّ، ولكن العملَ الذى يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

فالذى يُحسن العمل هو المؤمن، أما مَنْ يؤدى العملَ بتكاسل واتباع لظواهر الدين فهو المسلم، وكلاهما يختلف عن المنافق الذى يدَّعى الحماس إلى أداء العبادات، لكنه يمكر ويُبيِّت العداءَ للإسلام الذى لا يؤمن به.

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبقَ الناس إلى صفوف الصلاة وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويُدبّرون المؤامرات ضد النبى ﷺ لذلك يقول الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود]

وهو ما يُبيِّن لنا أن معيارَ الإيمان إنما يعتمد على التوحيد وإتقان أداء ما يتطلبه منهجُ الله سبحانه، وأن يكونَ كلُّ ذلك بإخبات وخضوع، لذلك يُقال: رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً خيرٌ من عبادة أورثتْ عزاً واستكباراً.

أى: أن المؤمن عليه ألاَّ يأخذَ العبادةَ وسيلةً للاستكبار. وكلمة (أخْبَتُوا) معناها: خضعوا خشيةً لله تعالى.

سورة ق

سُورَةُ ق

اكتشافُ آياتِ اللهِ فِى الكَوْن

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ [سورة ق]

فالقرآن هو المعجزة الخالدة، فقد حمل لكلِّ جيل ما يكتشفون به إعجازه لهم، وما يُثبتون به أنه من عند قيُّوم السماوات والأرض، ولا يمكن أنْ يتقوَّله بشرٌ.

والمتأمِّل فى العلوم الحديثة التى اكتُشِفتْ فى القرن العشرين وأصبحتْ حقائقَ علمية نجده قد أشار إليها بإعجاز مُذهلٍ، بحيث لا يتصادم معها بعد تقدُّم العلم، واكتشافُ آياتِ الله فى الأرض.

ولا يقدر على هذا الإعجازِ المُذهِل إلا اللهُ سبحانه وتعالى، فمثلاً يقول تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ [سورة ق]

والمدُّ معناه: البَسْط. وعندما نزل القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ لم يكُنْ هذا يُمثِّل مشكلةً للعقول التى عاصرها نزولُ القرآن الكريم فالناس يروْنَ أن الأرض ممدودة، والقرآنُ الكريمُ يقول: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾.

وتقدَّم العلمُ وعرف الناسُ أن الأرضَ كُروِيَّة، وانطلق الإنسانُ إلى الفضاء ورأى الأرضَ كُروية، هنا أحسَّتْ بعضُ العقول بأن هناك تصادماً بين القرآن والعلم.

والحقيقة أن المتأمِّلَ فى كلام القرآن يتأكَّد من صحته فى ضوء قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات]

أى: جعلها كالدِّحية أى البيضة، كما أن كلمة ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أى: بَسَطْناها لكلِّ إنسان، وأىُّ إنسان فى أيِّ مكان لا يجد الأرضَ إلا مَمْدودةً فإذا ذهب إنسانٌ إلى القطب الشمالي يجدها ممدوة، وإذا رجع إلى القطب الجنوبي يجدها كذلك وعند خطِّ الاستواء يجدها ممدوة أيضاً.

ولا يمكن أنْ تكون الأرض ممدوة ومَبْسوطةً للإنسان إلا إذا كانت كُروية، إذا تحرَّكَ الإنسانُ من نقطة ما على الأرض وظلَّ يسيرُ حتى يعودَ إلى النقطة التى بدأ منها لا يجد أمامه إلا أرضاً ممتدة.

أما لو كانتْ الأرضُ مُثلَّثة مثلاً، أو على أيِّ شكل هندسى غير الشكل الدائرى لَوَصلَ الإنسان إلى حافّتها، فلا يجدها ممدودةً عند الحافَّة.

والآيةُ فى لفظها اتفقتْ مع قدرات العقول وقتَ نزولِ القرآن الكريم، فلما تقدَّمَ العلمُ ووصل إلى حقيقة علمية نجد أن آيات القرآن تتفقُ مع الحقيقة اتفاقاً مذهلاً، ولا يقدر على ذلك إلا اللهُ سبحانه وتعالى.

سورة الذاريات

سُورَة الذَّاريَات

فى قَضيَّة الرِّزْق

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾

[الذاريات]

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسانَ ليعبده فى أرضه من خلال خلافته له، وتنفيذ منهجه الذى ارتضاه له ليحيا به على هذه الأرض، فقد أعفى اللهُ الإنسانَ من مسئولية الرزق الذى تستمر به حياته على الأرض، فكفله له حتى ولو لم ينفذ منهجَ السماء، ما دام قد أعمل الأسباب التى أمرنا الله أن نعملها لتحقيق الرزق.

وقد أكد القرآنُ على تلك الحقيقة فى مواقع كثيرة من آياته كقوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذاريات]

وكقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢ ﴾ [طه]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام].. وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء]

والآيات كثيرة، تلك التى تؤكد على حقيقة أن الرزقَ غيْبٌ لا يعلمه إلا الله إلا أن الإنسانَ بما جُبِلَ عليه من استعجال وجحود للنعمة فقد استعجل الرزقَ وضعُفَ يقينُه بأنه من عند الله، ولا دَخلَ للإنسان فيه، فسعى إلى الحصول عليه من طُرُق غير الطرق التى حددها منهجُ الله الذى وضعه للبشرية.

فصار الرزق نوعين: حرام وهو الذى أُخذ من غير وجهه الصحيح، وحلال: وهو الذى تمَّ الحصولُ عليه من طُرقه الصحيحة.

ومن هنا يصبح الرزق الذى لا أحدَ يستطيع التدخُّل فيه سببا من أسباب الثواب للإنسان، وكذلك من أسباب العقاب.

ولا يتوقف الأمر عند هذا، فالرزق الذى أتى من حلال قد يكون نعمةً، وقد يكون نقمةً، فيكون الرزقُ نعمةً إذا جاء من حلال، وذهب فى حلال دون سَفَه أو إسراف، ونال الفقراءُ حقَّهم منه الذى حدَّده اللهُ لهم فى آياته.

كما يكون الرزقُ نقمةً إذا أتى من حلال إلا أنه صُرِف فيما يُغضب الله، أو صُرِف بإسراف وسَفَه أو أغرى صاحبه فاغترَّ به وبعقله، فظنَّ أنه هو بذكائه وجهده الذى حقق المال دون أنْ يكونَ لله فضلٌ عليه فيه.

كما يروى القرآنُ عن صاحب البستان الذى قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف] ثم دخل جنته

وقال: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الكهف] أو مثل قارون الذى قال لمَنْ نصحه بأنْ يعطىَ للفقراء حقوقهم: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ.. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

ومن الرزق ما هو أدنى، ومنه ما هو خير، وقد تناول القرآنُ ذلك عندما طلب بنو إسرائيل من موسى أنْ يدعوَ الله أن يرزقهم مما تُنبت الأرض بدلاً ممّا ينزل عليهم من السماء مَناً وسلْوى فقال لهم ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ.. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

فالأدنى هو الرزق الذى يأتى من أعمال الأسباب التى وضعها الله للحصول عليه، والذى هو خيرٌ هو الذى يُنزله من عنده بلا أسباب، فهو عطاءُ الخالق مثله مثل رزق يوم القيامة الذى يكون أيضاً بلا أسباب.

سورة الطور

سُورَةُ الطُّورِ

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

يأتي بعضُ المستشرقين ليقول: هناك آيةٌ في القرآن تؤكد أن اللهَ سبحانه وتعالى يعطي بالأنساب، وذلك في قوله جَلَّ جلاله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ... ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

الأبناء مؤمنون، وقوله تعالى: ﴿ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾. كلمة: ﴿ أَلۡحَقۡنَا ﴾ تأتي عندما تُلحق ناقصاً بكامل.

فإذا كان الاثنان مؤمنيْن فكأنك تزيد درجةَ الأبناء إكراماً لآبائهم المؤمنين. نقول: إن الإيمانَ شيءٌ، والعمل بمقتضى الإيمان شيءٌ آخر. الأب والذرية مؤمنون، ولكن الآباءَ تفانوْا في العمل، والأبناء ربما قصَّروا قليلاً.

ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أي: لا بدَّ أنْ يكون الأبُ والذريةُ مؤمنين، ولكن غيرَ المؤمنين مُبعدون ليس لهم علاقةٌ بآبائهم، انقطعتْ الصلةُ بينهم بسبب الإيمان والكفر.

فالآباءُ لهم أعمالٌ حسنةٌ كثيرة، والأبناءُ لهم أعمالٌ حسنةٌ أقلَّ، يُنزِلُ اللهُ الأبناءَ في الجنة مع آبائهم، لأن الإيمانَ واحدٌ.

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم ﴾ أي: أنقصناهم من عملهم من شيء. إذن: فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم، والله بفضله يُلحق الأبناء بالآباء.

قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ .. ﴾ [البقرة]. هذه عمليةُ الإيمان في العقيدة. قد يقول البعضُ: إن الله تعالى يقول: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور]

ويقول سبحانه: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم]

فكيف يأخذ الأبناءُ جزاءً بدون سَعي؟ نقول: افهموا النصوص جيداً. قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم] تُحدّد العدل ولكنها لا تحدد الفضلَ الذي يُعطيه اللهُ سبحانه لمنْ شاء من عباده، وهذا يُعطي بلا حساب. ثم مَن الذي قال إن هذا ليس من سَعيهم؟ إن إلحاقَ الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم تكريمٌ لعمل الآباء، وليس زيادةً لعمل الأبناء.

ولقد روى لنا العلماءُ أن ولداً كان مؤمناً طائعاً عابداً، وأبوه كان مُسرفاً على نفسه، فلما مات الأبُ حزن عليه ابنه، ولكنه رأى أن أباه جالسٌ فوق رأسه ومعه واحدة من الحُور العين تُؤنسه، فتعجَّب الابن

كيف ينال أبوه هذه المكافأة، وقد كان مسرفاً على نفسه، فسأله: كيف وصلتَ لهذه المنزلة؟ فقال الأب: أيّ منزلة؟ قال الابن: أنْ تكونَ معك واحدةٌ من الحُور العين.

فقال الأب: وهل فهمت أنها نعيمٌ لي؟ قال الابن: نعم. فقال الأب: لا، أنا عقوبة لها.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

ونقول: إن الحقّ سبحانه وتعالى يُعامل خَلْقه في الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة في الذُّرية؛ فالواحد مِنّا يُحِب أولاده وأزواجه وآباءه؛ وما دام يُحبهم وقد صلحوا كُلٌّ حَسْب طاقته؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به.

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه هنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

وهنا يُمسك القرآنُ القضيةَ العقليةَ في الإلحاق، بمعنى أنْ تُلحِق ناقصاً بكامل، فلو كان مُساوياً له في العمل ما سُمِّي إلحاقاً، فكلُّ إنسان يأخذ حَقَّه، وقد اشترط الحقُّ سبحانه شرطاً واحداً في إلحاق الذرية بالآباء، أو إلحاق الآباء بالذرية في الجنة، وهو الإيمانُ فقط.

وأوضح لنا هنا أن الآباءَ قد تميَّزوا بعمل إيماني، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ.. ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

فلم يأخذ سبحانه عملَ الأب الذي عمل، والابن الذي لم يعمل، ومزج الاثنين، ليأخذ المتوسط، لا، وذلك كي لا يظلم مَنْ عمل منَ الآباء أو الأبناء.

ثم إن ذلك لو حدث لما اعتُبِر تواجدُ الآباء مع الأبناء في الجنة إلحاقاً؛ لأن الإلحاقَ يقتضي أنْ يبقى حَقٌّ كل مَنْ عمل، ثم يتكرَّم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق، بشرط واحد هو أن يكون الشخصُ المُلْحقُ مؤمناً.

وهكذا نفهم قولَ الحق سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ.. ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]

أي: أن الذريةَ مؤمنةٌ، والأزواجَ مؤمنون، والأهلَ مؤمنون، والأبوين مؤمنان، ولكن الذي يلحق به هو مَنْ يُكرِمه اللهُ بهذا الإلحاق كي يُدخِل الفرحَ على قَلْب المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ما داموا مؤمنين، وهذه قمةٌ في العدالة، لماذا؟

والمَثَلُ الذي أضربه على ذلك: هَبْ أن أباً قد حرص على أنْ يطعَم أهله من حلال، فقد يعيشُ أولاده في ضيق وشَظَف، بينما نجد أبناءَ المنحرف يعيشون في بُحْبُوحَة من العيش، وهكذا يتنعَّم أبناءُ المنحرف الذي يأكل ويُطعم أولاده من حرام، بينما يعاني أبناءُ الأمين الذي قد يعتبره البعضُ مُتزمتاً؛ لأنه يَرْعى حقَّ الله، ويرفض أكلَ الحرام.

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التنعُّم، فالحقُّ سبحانه يلحقهم في الجنة بنعيم يعيشه الأب، لا يفوتهم فيه شيءٌ، ولا يفوته شيءٌ.

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءتْ من صُلْب رجل مؤمن قضى حياته على جَادة الصواب، رغم أن بعضَ الناس قد اتهمتْه في الدنيا بأنه مُتزمّتٌ.

ولقائل أنْ يقول: ألاَ يوجد تناقضٌ بين هذا الإلحاق وبين قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا.. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان]؟

وأقول: لا يوجد تناقض؛ لأننا نُصلي على الميت صلاةً شرَّعها المُشرِّع وفائدتها أنْ تصلَ الرحمةُ للميت المؤمن، والإيمان من عمله.

ولذلك يضيف له الحقُّ سبحانه فوقَ رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التي أقامها المسلمون عليه: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الرعد]

سورة النجم

سُورَةَ النَّجْمِ

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾

[النجم]

عصم الحقُّ رسوله ﷺ فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ [النجم]

والسطحيون هم الذين لا يلتفتون إلى عظمة هذا الأداء البياني، ويتساءلون: ما دام الحقُّ سبحانه يُصوِّبُ لمحمد، فكيف إذن لا ينطق عن الهوى؟

ونقول: أنتم لا تُحسنون الفهمَ عن الله ولا عن رسول الله، فعندما صوّبَ اللهُ لرسوله ﷺ لم يكُن الرسولُ قد خرج عن حكم إراده الله، ولم يُعدّل حكماً لله حسب هواه الشخصي، وإنما هو ببشريته ﷺ كان يصل إلى حكم ما ويراه، ثم ترى السماءُ تعديلاً له، فينطق محمدٌ ﷺ بالتعديل كما أنزله الله.

ولم يخالف ﷺ ربَّه في أيِّ أمر. وجاء كلُّ تصويب لله في أشياء لم يسبق فيها للهِ حكمٌ، وكان كلُّ تصويب قد جاء لاجتهاد بشرى من رسول الله، ولم يَكُنْ في ذلك أيُّ هوى.

وحين قال الحق سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ [النجم] إنما يبلغنا أنه لم يكُنْ عند محمد حكمٌ من الله، فخالفه الرسولُ ﷺ اتباعاً لهوى، فمعنى الهوى أنْ يكونَ هناك منهجٌ ثم يعدل عنه، وكلُّ التصويبات التي صوّبها اللهُ جاءتْ في أمور لم يَكُنْ فيها حكم.

ولهذا نجد تصويب الحقِّ لرسوله يتسم باللطف، فيقول سبحانه: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

وهذا العفو لم يكن نتيجةً لمخالفة حكم من أحكام السماء، ولكن هو عفو سَمح؛ لأن رسولَ الله أخذ بالاجتهاد البشري في الأمور التي لم يكنْ فيها حكمُ الله.

وهو قول الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

وكان الرسول ﷺ قد حرّم أموراً على نفسه، ولم يُحرِّمها على الناس، وهنا يُوضِّح له الحق: لا تُحرِّم على نفسك ما أحللتُ لك. إذن: هذا أمرٌ لمصلحة الرسول.

وعندما جاء زيد بن حارثة ليُخيَّرَ بين أنْ يكون مع رسول الله كعبد له، وأنْ يكونَ مع أهله، آثر زيدٌ رسولَ الله، فكافأه ﷺ بأنْ جعله في مقام الابن، وكان التبني معروفاً عند العرب، ونادى الناسُ زيداً بزيد بن محمد.

فلما أراد اللهُ أنْ يبطلَ التبني قال: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ.. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

وكلمة (أقسط) تعني: أعدل، ومعناها أن القسطَ أيضاً في دائرة العدل. وعندما يُقال: فلانٌ له القسط. أي: له العدل. إذن: فالقسط أولاً لرسول الله،

والأكثر قسطاً هو حكم الله، فكأنك يا محمد قُمتَ بالقسط عند البشر، ولكن اللهَ يريد لك الأقسطَ.

إذن: فقولُ الحق سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ [النجم]. هو قولٌ لا يُستدرك عليه من مخالف لمنهج الإسلام، فإذا ما قال مخالفٌ لمنهج الإسلام: إن اللهَ يُصوِّب لمحمد، فكيف لا ينطق محمدٌ عن الهوى؟

نقول: وهل تعرف معنى الهوى؟ إن الحكم بالهوى يعني أنّه وجد حكماً لله فيُعدِّل الحكمَ لهواه، ولم يحدث ذلك من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ. وكلُّ تصويب من الله لم يأتِ على لسان رجل آخر، إنما جاء على لسان رسول الله نفسه. وهذه هي منتهى الأمانة في البلاغ عن الله.

سورة القمر

سُورَةُ القَمَرِ

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

حين يطلق اللهُ قضيةً من قضايا الإيمان فإنه سبحانه عليمٌ أزلاً أنها سوف تحدث على وفق ما قال، إنْ كان الظرفُ الذي قيلتْ فيه لا يُشجِّع على استيعابها وفهمها.

إن المؤمنين كانوا في أول الأمر مُضطهدين ومُرهقين، وإن لم يكُنْ للواحد منهم عشيرةٌ تحميه فإنه يهاجرُ عن البلاد، وإنْ لم يستطع الهجرةَ فإنه يُعَذب ويُضطهد. وفي هذه الفترة الشديدة القاسية، وفي قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوانُ الله هذا القولَ يتساءل: أيُّ جَمْع هذا؟ إن الواقعَ لا يساعد على هذا، ثم جاءتْ بدرٌ، وهزم المؤمنون الجمعَ وولوْا الدُّبُر.

وهذا دليلٌ على أن الله قد أطلق قضيةً وضمنَ أنها ستحدثث كما قال، وكما أخبر، وهذا مُطلق الصدق. إن الإنسانَ يمكنه أنْ يستبعدَ الصدقَ لو أن الذي قال غير الذي خلق، لكن الذي قال ذلك هو الذي خلق ويخلق ويعلم، فمن أين يأتي التناقض؟

ونلحظ أن كلمة (سيُهزم) فيها حرف (السين) التي تُنبيء عن المستقبل، وقد نزلتْ هذه الآيةُ في مكةَ وقتَ أنْ كان المسلمون قلَّةٌ وهم مُضطهدون ولا يستطيعون الدفاعَ عن أنفسهم.

وعندما يسمعها عمر بن الخطاب ﷺ ينفعل ويقول لرسول الله: أيُّ جَمع هذا؟ وجاء الجَمْعُ في بدر وولَّى الدُّبُر. حدث ذلك الإخبارُ في مكة، ووقعتْ الأحداثُ بعد الهجرة، وكانت الهجرةُ في الترتيب الزمني مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين في مكة.

أكان من الممكن أن يقول سبحانه: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] لولا أن ذلك سيحدث بالفعل؟ لو حدث غير ذلك لَكذَّبه المؤمنون به.

إن الرسول ﷺ قال ذلك إبلاغاً عن الله وهو واثقٌ، ويُطلقها اللهُ على لسان رسوله حُجةً فيُمسكها الخَصْمُ، ثم يثبتُ صدقها، لأن الذي قالها هو مَنْ يخلق الأحداث ويعلمها.

سورة الرحمن

سُورَةُ الرَّحْمَن

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الرحمن]

سألني أخٌ كريم في جلسة من الجلسات: لماذا يقول الحقُّ سبحانه في سورة الرحمن: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]؟

فقلت له: إن سورةَ الرحمن استهلها الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرحمن]

وبعد ذلك قال الحق: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال سبحانه: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن]

فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط، وإنما تتكلم عن الإنس والجن معاً. إذن: فمنْ خاف مقام ربِّه، هو من الجن أو من الإنس، إنْ كان من الجنِّ فله جنة، وإنْ كان من الإنس فله جنةٌ أخرى. إذن: فمَنْ خاف مقامَ ربِّه فله جنَّتان.

فمَنْ خاف مقام ربِّه من الإنس له جنة، ومَنْ خاف مقام ربِّه من الجن له جنة وهناك مَنْ يقول: جنتان لكلٍّ واحد من الإنس والجن، لأن الله لا يعاني من أزمة أماكن.

فحين شاء أزلاً أنْ يخلقَ خَلقاً أحصاهم عَداً من لَدُنْ آدم إلى أنْ تقومَ الساعة، وعاملَ الكلَّ على أنه مؤمنٌ مطيع، وأنشأ لكلٍّ واحد مكانه في الجنة، وعاملَ سبحانه الكلَّ على أنه عَاصٍ، وأنشأ له مقعداً في النار، وذلك حتى لا يفهمَ أحدٌ أن المسألةَ هي أزمةُ أماكن.

فإذا دخل صاحبُ الجنة جنته، بقيتْ جنةُ الكافر التي كانت مُعدَّةً له على فرض أنه مؤمن ؛ لذلك يقول الحق: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف] فيرث المؤمنون ما كان قد أُعدَّ لغيرهم لو آمنوا.

إذن: فالمعاني نجدها صَواباً عند أيِّ أسلوب من أساليب القرآن.

وقد قالوا في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن] قالوا: جنة عامة وجنة خاصة، كما يكون لك مكانٌ لاستقبال الضيوف، ومكانٌ لخاصَّة نفسك وأهلك.

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق في سورة (الرحمن)، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن] ثم يأتي الحديثُ عنهما: فيهما كذا، فيهما كذا. إلى أنْ يصلَ إلى قاصرات الطرف فيقول: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وكذلك في: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الرحمن] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى الحور العين فيقول: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تتساءلَ: الحديث هنا عن الجنتين، فلماذا عدل السياقُ عن (فيهما) إلى (فيهنَّ) في هذه النعمة بالذات؟

قالوا: لأن نعيمَ الجنة مشتركٌ، يصح أنْ يشترك فيه الجميعُ إلا في نعمة الحُور العين، فلَهَا خُصوصيتها، فكأن الحقَّ تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجال، ففي هذه المسألة يكون لكلٍّ منها جنته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحدٌ.

لذلك لما رأى رسولُ الله ﷺ الجنةَ رأى فيها قصراً فابتعد عنه، فلما سُئِل عن ذلك ﷺ قال: ((إنه لعمر، وأنا أعرف غَيْرة عمر)).

فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن، وإلى هذه الدرجة تكون دِقّة التعبير في القرآن الكريم.

ولولا أن اللهَ تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد، فالنبي ﷺ كان ينزل عليه الآيات، وحين يُسرى عنه يُمليها على الصحابة، ويظل يقرؤها كما هي، ولولا أن الله قال له: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى] ما تيسّر له ذلك.

ونحن في حفْظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً، فالصبي في سنِّ السابعة يستطيع حفْظ القرآن وتجويده، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفلَّتَ منه، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص في هذه السنِّ يظلُّ عالقاً بذهنه.

إذن: مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة، بل معونة حافظ، فإنْ كنتَ على وُدٍّ وأُلْفة بكتاب الله ظلَّ معك، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك، كما جاء في الحديث الشريف:

((تعاهدوا القرآن، فو الذي نفسي بيده لَهُو أشدُّ تفصّياً من الإبل في عُقَلها)).

ذلك؛ لأن حروفَ القرآن ليستْ مجرد حرف له رَسْم ومنطوق، إنما حروفُ القرآن ملائكةٌ تُصفَّ، فتكون كلمة، وتكون آية، فإنْ وددتَ الحرف وَددتَ الكلمةَ والآيةَ، ودَّتْك الملائكةُ، وتراصَّتْ عند قراءتك.

ومن العجائب في تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعلمتَ عقلك في القراءة تتخبّط فيها وتخطيء، فإنْ أعدتَ القراءةَ هكذا على السَّليقة كما حفظتَ تتابعت معك الآياتُ وطاوعتْك.

وتلحظ هنا أن القرآنَ لم يأْتِ باللفظ الصريح، إنما جاء بضمير الغيبة في ﴿ يَسَّرْنَٰهُ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم] لأن الهاء هنا لا يمكن أنْ تعودَ إلا على القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فضميرُ الغيبة هنا لا يعودُ إلا على الله تعالى.

وقوله: ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم] أي: بلغتك، فجعلناه قرآنا عربياً في أمة عربية ؛ ليفهموا عنك البلاغَ عن الله في البشارة والنِّذارة، ولو جاءهم بلغة أخرى لَقالُوا كما حكى القرآنُ عنهم.

سورة الواقعة

سُورَةُ الوَاقِعَة

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٨) لَّا
يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
(٨٠) ﴾ [الواقعة]

من عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٠) ﴾ [الواقعة]

ما المقصود إذن؟ هل المقصود أن القرآنَ لا يُمسكه إلا الملائكةُ الذين طهَّرهم اللهُ من الخبث، أو أن للبشر أيضاً حقَّ الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون؟

بعض العلماء قال: إن المسألةَ لا بُدَّ أنْ ندخلها في عموم الطهارة، فيكون معنى ﴿ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] أي: الذين طهَّرهم منْ شرعَ لهم التطهر؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران: التطهر والطُّهر.

فالتطهُّر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطُّهر بتشريع الله، فكما أن اللهَ طهَّر الملائكةَ أصلاً، فقد طهَّرنا معشرَ الإنس تشريعاً، وبذلك نفهم الآيةَ على إطلاقها ونرفع الخلاف.

والله سبحانه وتعالى يريد لنا أنْ نستديمَ اتصالاتنا به، ولم يشأ أنْ يجعلَ الوسيلةَ للصلاة بأمر الماء فقط؛ لأننا قد نفقد الماءَ وقد يُوجد الماءُ ولا نقدر على استعماله.

فلم يشأ الحق أنْ يقطعَ الصِّلةَ بأنْ يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هي الماء، فأوجد وسيلة أخرى، فإنْ فقدتَ الماء أيها الإنسانُ فلا بُدَّ أنْ تدخل إلى لقاء الله بوسيلة تطهير أخرى وهي التيمم. هذا أمر لا يفقده مَنْ عاش على الأرض. إذن: فعندنا تَطَهُّر بالماء، وعندنا تَطَهُّر بالتراب.

ولا يريد اللهُ أنْ يُعْنِتَ خَلْقه، ولا أنْ يُوقعَهم في الحرج، بل خفَّفَ عليهم وجعل عنصرض التراب يكفي كبديل للماء: ﴿ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ.. ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة]

وإياك أنْ تفهمَ أن الطهـارة هـي للتنظيـف ؛ لأن معنـى الطهـارة لو اقتصر على التنظيف لكانـتْ الطهـارةُ بالمـاء فقـط، فلمـاذا إذن نمسح وجوهنا بالتراب؟

إن هذا يوضح أن الطهارةَ غيرُ النظافة، فلو قال قائلٌ: سأنظف نفسي بـ ((الكولونيا)). نقول له: لا. ليس هذا هو المطلوب. والله لا يطلب نظافةً بهذا المعنى، ولكن يطلب التطهير. والتطهير يكون بشرط مَنْ تدخل عليه ـ وهو الله سبحانه.

وقد وضع الحقُّ سبحانه لذلك أمرين: إما بالماء، وإما بالتيمُّم بالتراب. فالطهارةُ تجعل المرءَ صالحاً ليستقبلَ ربَّه على ضوء ما شرع به. والذي يضع الشرط لذلك هو الله، وليس أنت أيها العبد.

وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له، وأعاد اللهُ الإنسان في قُربه منه إلى أصل إيجاده، وهو الماءُ والتراب.